HUSSEIN AL-BARGHOUTHI

سيرة سيرة
AUTOBIOGRAPHY

حسين البرغوثي

@ketab_n
Follow Me

22.5.2012

ketab.me
Best Books

سأكون بين اللوز

(لعلّه أجمل إنجازات النثر
في الأدب الفلسطيني)
محمود درويش

سيرة سيرة
AUTOBIOGRAPHY

حسين البرغوثي

ketab.me
Best Books

سأكون بين اللوز

Twitter: @ketab_n

سأكون بين اللوز / سيرة ذاتيّة
حسين البرغوثي / مؤلّف من فلسطين
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali @ nets. com. jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
لوحة الغلاف :
توشيموتسو إيماي / اليابان
الصفّ الضوئيّ :
المطابع المركزيّة + بيت الشعر الفلسطينيّ
التنفيذ الطباعيّ :
المطابع المركزيّة / عمّان ، الأردنّ

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .
ISBN 9953-36-620-9

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حسين البرغوثي كما أراد :
بين اللوز والرؤيا

أحمد دحبور

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في ذلك الشريط السينمائي المتروك لذاكرة الطفولة ، كان الأب الهرم يصف إحساسه بالموت لابنه غير الشرعي ، فيقول : إنَّه كان كمن يهوي من الدَّوْر الخامس والعشرين. وكان كلَّما أصبح بموازاة دَوْر جديد يُعزِّي نفسه قائلاً : هذا لا بأس ، لا يزال أمامي وقت. ولكنَّه عندما أصبح عند الدور الثالث عشر أدرك أنَّ كلَّ مسافة يقطعها إلى الأرض تجرُّه بالضرورة إلى ما تحت الأرض. فهي النهاية ، ولا شيء غير ذلك. أمَّا حسين البرغوثي فقد قفز مرَّة واحدة من بضع سنواته التي قضاها في العقد الخامس من العمر، إلى «الدَّوْر الثالث عشر» . ومنذ اكتشاف السرطان ، ومن غير تسويف ، أصبحت كلُّ مسافة يقطعها إلى الدور الأرضي تبلغه بإلحاح ، وبلا رأفة ، إنَّه ذاهب إلى هناك .. ولأنَّه مثقف نوعيٌّ عاركَ الفلسفة وحار في

Twitter: @ketab_n

أسئلة الموت والحياة ، فما كان ليرضى أن تسفر النهاية عن عدم مظلم يقطع الحوار مع العالم. وهكذا آثر أن يكون ذلك المكان هناك .. بين اللوز.

تُرى هل كان على حسين جميل البرغوثي أن يصارع المرض العضال وحيداً مع الوجع المستمر حتى الملل- حسب التعبير الذي استعاره من «كيركغارد»، وأن يتأمَّل في الوجود ، ويكسرَّ الزمن إلى شظايا تصنع «كلايد سكوب» الذاكرة ، فيتدخَّل في بعثرة الوقائع وترتيبها، ثمَّ يغمض عينيه إلى الأبد فجر يوم عيد العمال من العام الثاني بعد الألفين ، وقبل أربعة أيام فقط من عيد ميلاده ، حتى يفتح شهيتنا على استحضاره والكتابة عنه كما لو لم يكن بيننا ؟ .. لا أقصد اتهامنا بالجحود أو مجاملة الموت أو الشعور بالذنب أو أي تفسير جاهز لهذا النوع من ردود الأفعال . ولكنَّني أنتبه إلى مفارقة شغلت هذا المفارق العزيز طويلاً . هي أنَّ الحياة بمقدار ما هي غالية تظلُّ شديدة الهشاشة . وأنَّ الإبداع بمختلف تجلِّياته ، هو الردُّ الكلاسيكي المزمن على هذه المفارقة . ثمَّ يبقى أننا نتأمَّل الأثر الذي تركه فينا هذا الذي لم يشغله أن يتركَ أثراً بَقْدر ما كان مشغولاً بسلامة ابنه الوحيد «آثر»، لا بوصفه امتداداً له في الحياة ، بل بوصفه حياة من حقها أن تأخذ الفرصة كاملة..

وحسين البرغوثي نفسه لم يأخذ هذه الفرصة على ما أُوتيه من ثقافة وموهبة. فقد اختُطف ولا إعادة نظر في الاختطاف الذي كان مباغتاً بقدر ما كان متوقعاً. ونفتح بطاقته الشخصية. فهو مولود في قرية كوبر، من قضاء رام الله ، العام (1954). درس وتفوَّق واغترب وعاد

Twitter: @ketab_n

بشهادة الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة سياتل الأمريكية .. عرف الإنكليزية والمجرية وألمَّ بالفرنسية .. وتبحَّر في الفلسفة وعلم النفس . وعندما وقف أُستاذاً أمام تلاميذه في جامعة بيرزيت، فاجأ الأساتذة والتلاميذ معاً بالأنموذج الإنسانيّ الذي بناه من نفسه بنفسه تلقائياً . فهو العفوي، المبادر، الصامت ، المتدفِّق في الحديث ، الفوضوي مشيةً وملابسَ ، المنظَّم فكراً وسلوكاً . فقد نجح ، على حدِّ تعبير الطيب صالح ، بالإمساك بخيوط الفوضى. وكان لا يقر له قرار على جنس محدَّد في الكتابة . فكتب «سقوط الجدار السابع» و «أزمة الشعر المحلِّي» والكثير من المقالات في الدراسة والنقد . وعطف على الرواية فكتب «الضفَّة الثالثة لنهر الأردن» – ولا أدري هل اقتبس العنوان من قصَّة «ضفة النهر الثالثة» للبرازيلي «خواوغويماريس روزا» أم كان ذلك نوعاً من التخاطر، وأودع المكتبة الشعرية أربع مجموعات هي «الرؤيا – ليلى وتوبة – توجد ألفاظ أوحش من هذه – مرايا سائلة» . وكان له وقفة خاصَّة مع المسرح فنقل عن الإنكليزية رائعة شكسبير «روميو وجولييت» . وكتب وشهد إخراج مسرحية يعبرِّ عنوانها عن واقع الحال «لا ، لم يمت» . وكأنَّه حين شرع في تسجيل سيرته الذاتية بكتابة «الضوء الأزرق» شعر بأنَّ الجرعة لم تكن كافية ، فثنى بعمله الذي لم يصدر إلى الآن في كتاب مستقل ، بل نشرته مجلة الكرمل على مرحلتين . هذا الكتاب ، طبعاً ، هو «سأكون بين اللوز».. وفي الأول من الخامس الميلادي للعام (2002)، أغمض حسين عينيه وهو غير قلق على طفله الوحيد آثر مادام بين يدي إيمان نجم، رفيقة

Twitter: @ketab_n

عمر حسين التي أصبحت بعد ارتباطها به بترا البرغوثي.
إذن ، توقَّف الوجع المستمر المملّ يا أبا آثر.. فهل تسمح لنا بأن نقصدك في هذه الزيارة المبكّرة إلى كوبر ، حيث تقيم إلى الأبد، كما أوصيت ، بين اللوز؟

بدايات مستمرة

يقول الفيلسوف الوجودي الدانماركي «سورين كيركغارد» ، وهو الذي فُتن به حسين البرغوثي وخصَّه بالاستشهاد الأول في سيرته «سأكون بين اللوز» والتي سنرمز لها بالسيرة:
«إنَّ الساخر يقارب بين المتضادات في جنون متفوِّق . وهو يسعى إلى إغراء البدايات الساحر . فحياته لا تقبل الخضوع لنسق دائم، بل هي مشتَّتة وتمتعها مراقبة التحولات النفسية. كما أنَّها تفقد التواصل والمتابعة. والأمر الوحيد الذي تعرفه هو الملل» .
ومن اقترب من حسين البرغوثي، ولو قليلاً، يدرك بغير صعوبة كم هو «برغوثي» أصيل من جهة نزعته التهكُّمية الساخرة . إلّا أنَّ سيرته ، ذاك، ليست تطبيقاً لصورة الساخر كما شخَّصها «كيركغارد». وإن كنَّا لا نستطيع إغفال نزعته إلى الجدل مع المتضادات وحرصه على اشتقاق بدايات جديدة باستمرار . وهو ، في سيرته التي بين أيدينا ، يذهب إلى البدايات منذ الجملة الأولى : «بعد ثلاثين عاماً أعود إلى السكن في ريف رام الله .. إلى هذا الجمال الذي تمَّت خيانته ، نفيت نفسي طوعاً عن بدايتي

Twitter: @ketab_n

فيه ، واخترت المنفى. وأنا ممن يتقنون البدايات وليس النهايات». لقد هجر جمال الطبيعة البكر ثمَّ عاد إليه ، ولكن ليس كعودة الابن الضال النادم، بل عودة المكتشف . فما كان لمثل حسين أن يكفَّ عن الدهشة من الجمال. وبطبيعة الحال تكمن الدهشة في اقتراف البدايات . والجمال بالذات الذي تربطه مثالية أفلاطون بالخير بالذات ، لا يطلب من هذا العائد بعد ثلاثين عاماً إلاّ أن يكون متصالحاً مع نفسه لينسجم ، بالخير البشري ، مع الجمال الطبيعي. وحسين الذي لم يكن أفلاطونياً بأي معنى يعترف لعودته بأنَّها تمَّت تحت وطأة المرض. والمرض يتعارض كلياً مع إنشاء البدايات لكونه إنذاراً بالنهاية . وهكذا يبلغنا بنوع من الاستسلام السعيد : إنَّها نهاية غير متقنة . هكذا يتداخل الشعر ، بما هو لغة عليا، في الفلسفة بما هي لغة حسيَّة محدَّدة . فالشاعر ينزع إلى أن يخطَّ السطر الأول كلَّ مرَّة من حياته بدهشة الكتابة الأولى . وجسده المنهك يصادر على هذه النزعة . وهكذا تتحوَّل البداية المقترحة من لحظة إبداع وكشف إلى إعادة إنتاج للماضي . وكلُّ فعل سابق ، حتى لو كان قد حدث قبل ثانية ،هو فعل ماض . إلاّ أنَّ حسيناً بمشاغبته على الخطوط المستقيمة ، يغيرِّ الخريطة ، ويذهب بالماضي إلى أبعد مما نتوقَّع . فهو ، في أحد المستويات الزمنية القريبة ، يضبط نفسه «زائداً عن الحاجة» في مستشفى تكون الأدوار العليا فيه مخصَّصة للولادات الجديدة والأدوار السفلى مخصَّصة للموتى – لنلاحظ أنَّه أعطى الولادات صفة الجديدة ، أمَّا الموت فلا جديد فيه – وتلك المفارقة بين الأعالي المرتبطة بالولادة والأدوار التحتية المرتبطة بالموت ، كما في إحدى قصص الإيطالي

Twitter: @ketab_n

«دينو بوتزاتي» ، تجعل الشاعر المهدود بالمرض مؤرجحاً بين الاحتمالين الوجوديين، مع ترجيح علامات النهاية وهو مما يفرض على ذاكرتي تلك اللحظة الدراماتيكية للشاعر المنكود توفيق صايغ :

«معلّق أنا

بين موت وحياة

لا بين موت أو حياة» .

وهكذا يفترق حسين البرغوثي موضوعياً عن «كيركغارد» صاحب كتاب (إمَّا/أو) . فقد هزمه المرض وسلبه الاختيار الحر بين «إمَّا» هذا «أو» هذا. ولكن القدرة على مراوغة الموت أسعفته بذاكرة الأجداد ، وهو المستوى الآخر للزمن من حيث أنَّه بعيد ، فهو مشغول بهذا الزمن الكامن في الوديان ، بالحياة النائمة في عمق الطبيعة ، بالأضداد المتصارعة مع أن تناقضاتها تلخّص وحدة الوجود . هكذا يخلو إلى وادي قريته الأولى فيحضره صوتان : صوت أحد أسلافه ، قدورة ، الذي لدغته «الأفعى الزعراء» في لحظة عبثية وهو يليح بقدميه فوق ظهر حماره . وصوت الحيوان الوديع ، الغريري – ويبدو أنَّ هناك اختلافاً في اللهجة بيننا، فهو يسمّيه «الغريريا» – وهو حيوان بحجم القط يبكي فيشبه صوته بكاء الأطفال.

وفي المسافة الفارقة بين الموت العبثي لرجل قوي وبين البكاء العبثي لذي روح من غير حول أو طول ، يخطُّ حسين البرغوثي تلك البداية الأليمة المستمرَّة . فنحن نحمل علامة موتنا بلحظة ولادتنا ومن يولد فسوف

Twitter: @ketab_n

يموت . ولا عزاء إلّا بأن تجدّده الطبيعة فيصبح إحدى ظاهراتها كأنّه شجرة أو صخرة أو «غريري» مهدَّد بالانقراض .

ما لم يمت

لم يمت قدورة كلُّه ، حسب تعبير حسين البرغوثي، وللتذكير فإنَّ قدورة هوعمُّ أمِّه الذي لدغته الحية الزعراء – وهي صفة طريفة تفيد بأنَّ الأفعى قصيرة . لكن في «الزعرنة» مستوى من العبث ، أيضاً. و لم يمت من قدورة إلّا جسده . لكن ربابته بقيت من بعده . وهي ليست الإشارة الوحيدة إلى استمرار حياة الراحلين من خلال آثارهم الدالة على إبداعهم. إلّا أنَّ ما يهمُّنا ، في هذا المشهد ، هو أنَّ حسيناً نفسه لا يحب الربابة ، بل الناي . فهو بجنونه المتفّوق يعترف للراحل المتميِّز بأنَّه لم يمر خفيفاً على الأرض ، بل ترك أثراً وذاكرة. ولكنَّه ، من جهة ثانية ، لا يجامل الموتى.

فموت قدورة لن يمنح ربابته قدسية عند حسين الذي أصاخ السمع العميق للأمثولة الشعبية العالقة بالدين . بحيث جعلت الناي وعاء لسرِّ النبي ، ومن بعده الإمام علي ، مفتوحاً على الفضاء . ولكن ما يجمع بين الربابة والناي أنَّهما وسيلتان موسيقيتان شرقيتان – ودعونا نتذكَّر أنَّهما أيضاً ، فلسطينيتان بشكل ما – وإذا كان خشب الناي مترعاً بماء الروح الذي يسيل صوتاً وشجى ، فإنَّ للربابة أن تقود أصوات المغنينَ إلى شجن موروث :

Twitter: @ketab_n

«جابو لي هالعرق بيضا بكاسي

وقلولي افرح بعد ما شاب راسي»

وما كان لهذا الصراع الفطري بين الرغبة في الحياة والشيب، بما هو علامة شيخوخة يليها موت، أن يضرب في وعي صاحب السيرة لولا الربابة الموروثة من قدورة . إنَّ العازف البدائي يجرُّ قوسه على وترها الخشن المصنوع غالباً من ذيل الفرس فتحمل صوتاً شبيهاً بالنواح اللاهث المبحوح. فقدورة، صاحب الربابة ، بهذا المعنى لم يمت لأن الموسيقى باقية.

ليست هذه سوريالية ولا لعباً على التناقضات ، ولكنَّه نبض الحياة المتصل بالموسيقى التي يعود بها حسين البرغوثي إلى أكثر أشكالها بدائية وبراءة. فالصمت ، بحدِّ ذاته، موسيقى «هكذا يقول نقلاً عن الأسلاف» ويضيف: «ولكن قلَّة تعرف أنَّ الصمت أنواع» والصمت أنواع حقاً بما هو كلام جوَّاني لا يغشى طبلة الأذن ، ولكنَّه يقترح كلاماً غير ذي صوت . وهو ما سينقلنا صفحات في هذه السيرة الفريدة إلى استبطان معنى الموت من داخل الحياة . فما يقصُّه علينا حسين بشأن فحوصاته ورائحة الأدوية وشحوب المرضى وحيادية الممرضات ليس ناتجاً عن حوار مسموع بينه وبين الآخرين . ولكنَّه يرسل صمته إلى الورق ويكتب عن كلِّ شيء إلاّ الخوف من الموت . ولكنَّه أفصح عن هذا الموت مرَّة واحدة بالفرح ومرَّة ثانية ، ليس هذا لعباً على المتناقضات. ولكنَّه تسليم بريء باكتشاف

Twitter: @ketab_n

تناقضات الحياة . فقد أوصلته مصادفة لا عقلانية إلى شك في أنه مصاب بالإيدز .

وكما أنَّ الصمت أنواع فإنَّ الموت أنواع . وأن تموت وأنت تعارك مرضاً عضالاً بصبر وبسالة غير أن تموت بمرض شائن يفتك بالجسد والسمعة في وقت واحد . لكن هذا المضرَّس بالتجارب والمرارات قد لا تشغله السمعة مادام متصالحاً مع أخلاقه وقيمه ، إلا أنَّ الفزَّاعة التي تدمرٌ مناعة روحه وصورة مستقبله معاً هي الأسرة الصغيرة : ماذا عن بترا؟ ماذا عن آثر؟ .. إنَّ الإيدز ، إذا تحقَّق ، سيكون خطراً لا رادَّ له عن هذين الشريكين البريئين اللذين لا ذنب لهما إلاّ أنَّهما زوجة وابن لشاعر منكود يقطع أوصاله الفزع . وتأتي نتيجة الفحص بشارة سارة: عندك سرطان؟.. هل هو الجنون؟ أم العبث بحدوده القصوى؟ سرور لأنَّ النتيجة سرطان؟ وليس هذا وحسب ، بل إنَّ السعادة تستولي على المشهد، وسيرقص حسين البرغوثي مغتبطاً بالسرطان الذي يفتك بغدَّته اللمفاوية. لا لأنَّه عدمي ، بل لأنَّ السرطان مرض فتاك قاصر، لا يتجاوز جسده . أمَّا الأيدز فقد كان خطراً على من لا ذنب لهما .. وفي فرحة حسين بسرطانه نسي أن يسأل نفسه: ولكن ما ذنبي أنا ليأتيني السرطان في هذا الوقت المبكر؟ ومع ذلك فهو لا يسأل . فليس السرطان إلاّ حية زعراء خاصَّة به وحده . وسيموت وحده ولكن ليس كلَّه ، فسيبقى بعده آثر وبترا وكتاباته بالتأكيد .

Twitter: @ketab_n

لعبة الأسماء

لا علاقة لأشخاص هذه السيرة بأسمائهم إلاّ من ندر. قد نشتقُّ من اسم الجد «كايد» علامة على القوّة أو نلتمس لقدورة علاقة بين القدرة والقدَر وشخصه الزائل. ولكن هذه كلها مصادفات. فلسنا مسؤولين عن أسمائنا إلاّ بمقدار علاقاتنا بالأبراج والشعوذات المتوارثة. ومع ذلك فقد توقّف حسين عند اسمه واسم أبيه، فلم يذكر أنَّ اسمه يذكّره بأجمل الشهداء الحسين بن علي، وأنا أعرف شخصياً تقديره لهذا الشهيد الاستثنائي. لكنَّه اعترض على أنَّه اسم شائع متداول لا يحقّق خصوصية. وكذلك اسم أبيه، ولما كان يحمل اسمه كما يحمل بصمات أصابعه، فليألفه كما هو على أن يمدَّ نفوذه السيميائي إلى أقرب الناس إليه.

سيجعل من إيمان، زوجته، بترا. والإيمان صفة تنتسب إلى الأيديولوجيا. أمَّا بتراء فهو اسم إشكالي يحيل إلى الأثر التاريخي وإلى البتر. ونحن مبتورون بظرفنا الإنساني والتاريخي والوطني. أمَّا آثر فهو اسم غريب، مختلف، جاء بما يشبه النبوءة، نتيجة حلم وهاجس. ولهذا سيكون من العبث أن نبحث له عن معنى أو نصٍّ غائب إلاّ بما يؤكد أنَّه «إنتاج» حسين لا بالشروط الفيزيائية البيولوجية وحدها، بل بكونه إلهاماً ونداء خفياً يأخذ معناه من أنَّ هذا الطفل ينادي أباه باسمه: يا حسين، ولا يقول: يا أبي. إنَّه ندٌّ له بما هو امتداد. تماماً كما كانت ربابة قدورة بالنسبة إلى قدورة، وبكاء الغريري بالنسبة إلى الحيوان المذعور. وقد يفيض عن هذا التأويل مؤشر دلالي إلى المناخ الديمقراطي الناشئ بين الأب والابن. وما أحسب

Twitter: @ketab_n

البرغوثي كان مشغولاً بهذه المعلومة لتصديرها إلى القارئ. فأمُّه هو كانت تعتبره عندما كان طفلاً، أميرها الصغير. وكانت تلقنه مفردات الحياة بحب وعذوبة من غير أن يكون ذلك درساً أكاديمياً في التربية للأجيال. كانت الفطرة هي أساس العلاقة . وكانت معركة حسين البرغوثي مع تجربته المعرفية الكبيرة هي المحافظة على تلك الفطرة . وهي ما تلخّصها أمثولة ردَّدتها الأم على مسمعه . وحين قرأتها ، شخصياً ، اهتزَّ قلبي على صدى حكاية موازية سمعتها من أمِّي مع اختلاف الطُرق .

فالفتى عند أم حسين البرغوثي سيكون موزعاً بين طريق الوضوح أو طريق الغموض أو طريق اللاعودة . وهو يعترف بأنَّ حشرة «سراج الغولة» لم توفِّر لـه الضوء الكافي للوضوح. ثم إنَّه لم يواصل طريق اللاعودة بدليل أنَّه عاد إلى ريف رام الله بعد ثلاثين عاماً من الغربة الاختيارية . وبقيت لـه طريق الغموض بما هي حقل دلالي يعج بالاحتمالات والتناقضات والأسئلة . ربمَّا لهذا غضَّ الطرف عن اسم إيمان المليء بدلالة الوضوح. واختار لابنه اسماً قادماً من الحلم . من غير أن يتنكَّر لوضعه البشري القدري . فهو حسين ، مثل ملايين البشر الذين ورثوا أسماءهم من أهليهم وكان عليهم أن يجاهدوا ليمهروا أسماءهم الشخصية بالمعاني الناجمة عن إيقاع الحياة وألوانها المتداخلة «الغامضة».

وقد نتذكر إحدى القصص القصيرة الشهيرة لماركيز التي تقول فيها النساء اللواتي شاهدن الرجل الغريق : إنَّ ملامحه تدلُّ على أن اسمه «استيبان» . ولكن ما الذي فعله هذا الـ «استيبان» حتى استحق افتراض ذلك الاسم .

Twitter: @ketab_n

إنَّ ماركيز لم يبلغنا . لكنَّنا نقرأ نتاج حسين البرغوثي فندرك لماذا استحقَّ اسمه بجدارة : إنَّه بكل الأسى والفخر .. حسين جميل البرغوثي ..

خارج الزمن

وحسين الذي كان على يقين مع أنَّه اختار الغموض ، وبالتالي فأين اليقين؟ بأنَّه كان على صداقة روحية مع ابنه آثر في حياة سابقة . تسعفه الحياة السابقة بما هي مجاز ميثولوجي، بالبحث عن خمسة أيام ضائعة في الفرق بين التقويم الفرعوني والتقويم الشمسي . فتقول الأسطورة إنَّ السنة كانت عند الفراعنة ، كما هي فعلاً ، خمسة وستين وثلاثمئة يوم ولكن الآلهة القمرية خسرت خمسة أيام عندما كانت تلعب الدومينو . وكلُّ من يولد خلال هذه الأيام الخمسة يولد خارج الزمن .

وسيلتف حسين من هذه الأسطورة على ذخيرته الثقافية فيبرز له من «خارج الزمن» ما وصفه «مارسيل بروست» ، «بالزمن الضائع» ، ليعود إلى الواقع الجارح الذي يذكِّره بالزمن «الزائد عن الحاجة» وهو التعبير الذي اهتدى إليه عندما تبرمت الممرضة بسؤاله عن طبيب فحص الدم . والمفارقة في هذه الدورة أنَّ من يولد – حسب الفعل الماضي– في الأيام الخمسة المحذوفة يكون خارج الزمن .

أمَّا هو . وهل هو حسين البرغوثي أم أي إنسان آخر من بني البشر؟ فزائد عن الحاجة بما سيكون لا بما كان . فلأنَّه مريض في زمن انشغال الناس بموت آخر ، موت فردي وجمعي ، موت بعنف سببه الاحتلال وجنود

Twitter: @ketab_n

الاحتلال ، فإنَّ المريض العادي ، حتى لو كان مريض سرطان ، سيبدو فضولياً ، أومتمحكاً، أو زائداً عن الحاجة حين يسأل عن طبيب تستدعي الحاجة إليه أن يكون بين الجرحى والقتلى وكأنَّ المرضى العاديين ليسوا حالات إنسانية تحتاج هذه الرعاية .

وعند هذه اللحظة يهتك حسين البرغوثي حجاب الرمز، ويرى نفسه في «الغريري» ، الحيوان الصغير ، المستهدف ، المستضعَف ، الباكي،مع فارق هام : هو أنَّه ، أي حسين، يدرك فظاظة جهل الممرضة ، بينما «الغريري» لا يملك إلا غريزة الخوف . وهو حين يخاطب الممرضة بصمته الأليم لا تفهم الممرضة صمته المسموع ولا بكاءه الدفين . أمَّا «الغريري» فلا يفهم المستوطنون الصهاينة طبيعته ولا سبب بكائه فيتَّهمون التراب الفلسطيني الذي أنجبه بالجنون ويعتبرون «الغريري» امتداداً لِـ «الغوييم» الذين هم دونهم في المنزلة الإنسانية .

وعندما تقوم أول سلطة فلسطينية على الجزء المتاح لنا من الوطن، سيتأمَّل حسين البرغوثي تلك الزنازين التي بنتها سلطات الاحتلال ويتابع «العبقرية» الهندسية التي صمَّمت البناء بحيث يسبب عذاباً لانهائياً للمعتقلين . وسيرسخ في روحه ما قاله جميل أبو سعدا ، أستاذ البيولوجيا في بيرزيت من أنَّه بقي ليالي كاملة في الزنزانة الهمجية لا يستطيع الجلوس ولا الوقوف ، ومع أنَّ حسيناً لم يربط مشهد الزنزانة بمسار تأملاته في الوضع البشري خارج الزمن إلّا أنَّ المقارنة توصلنا إلى النتيجة المرعبة الواحدة : المرض كالاحتلال . أو الاحتلال كالسرطان . لا

Twitter: @ketab_n

فرق في المفاضلة ، فكلاهما يعتدي على السنوات الطبيعية التي هي من حق أي إنسان مولود تحت الشمس.

وأمام الاستحقاقات الكبرى ، لا تقع المسؤولية على آلهة قمرية فرعونية خسرت خمسة أيام في لعبة دومينو. ولكنَّها تقع مرَّتين على الإنسان المعاصر . مرَّة ليقضي على المرض وكل ما يعذِّب الجسد البشري . ومرَّة على المحتلين بوصفهم من فصيلة الإنسان ، وعلى الإنسان الطبيعي الذي لا بُدَّ وأن يعمل على انتهاء الاحتلال .

لم يقل حسين البرغوثي هذا.. لكنه أوصلنا إلى هذه النتيجة من غير تأويل مفتعل أو مصادرة على المطلوب .

بلد الحكايات

لا تملُّ سيرة حسين البرغوثي من استذكار الأصوات الطازجة الدافئة: شعر محمود درويش ، بيت عتابا قديم ، مثل شعبي ، أمثولة موروثة، فيروز.. المزيد من فيروز . ومن فيروز يحضره غناؤها الحريري : أنا من بلد الحكايات. ولو كان حسين مجنوناً بحيث يضحي بهذا العنوان الساحر «سأكون بين اللوز» لكان من الممكن أن يستأذن الرومانسيةَ في أن تدخله بيتها بتسمية هذه السيرة : «أنا من بلد الحكايات» .. فإضافة إلى التأمُّلات، والتفسيرات، والقراءات المفاجئة لكلِّ ما يخطر في الذاكرة وتتدبره المخيلة، هناك سيل من الحكايات التي ورثها هذا الرجل الذي ظلَّ يقطر شعراً حتى آخر لحظة من حياته . مع أنَّ شاعريته الحقيقية وجدت

Twitter: @ketab_n

متنفسها الطبيعي في نصٍّ مركب كهذا الذي بين أيدينا .

فـ «سأكون بين اللوز» شبيه بما شرحه لنا د.عبد الرحمن بدوي في «موسوعة الفلسفة» من عالم الكتابة عند الفيلسوف «كيركغارد» . ويكاد يكون ما قاله د. بدوي بشأن الفيلسوف الوجودي الدانماركي أن يتطابق مع صفات كتاب البرغوثي من حيث أنَّه «خليط غريب من الاعترافات العاطفية الشخصية والتأملات الفلسفية والمقالات الأدبية وفي الكتاب تتعاقب الأجناس الأدبية : يوميات ، عرض منظَّم ، مناجيات ، صور أدبية، تفسير أحلام ..إلخ» وزيادة على هذه المزايا والسجايا نعود لدى حسين إلى الحكايات التي تجمع سحر الميثولوجيا ، إلى مكر العقل الذي يقود القارئ ، من غير مباشرة ، إلى التأويل حيناً وإلى التخيُّل أحياناً . فلماذا قام كايد بذبح أقربائه الإثني عشر؟ إنَّ الحكاية تكتفي بالقول : إنَّهم كانوا مختلفين فيما بينهم .

فهل كان كايد مختلفاً بدوره معهم ، أم أنَّه كان مختلفاً مع اختلافاتهم هذه ؟ إنَّه لا يفسرٌ ولكنَّه يتحرَّك داخل الحدث كأحد أبطال «لوركا» ذوي الدم الحامي . أمَّا زوجة كايد ، الشجاع المخيف ، فهي ذات اسم كاريكاتوري: سعوطة، وستموت لتناولها جرعة زائدة من السعوط ولكن لها نصيبها من الأحلام التي تدرجها في منطقة العجائب والدهشة والأسرار . على أنَّ للدهشة ملكاً متوجاً في هذه السيرة ، وهو بالتأكيد آثر ، الطفل الذي سينجبه حسين البرغوثي بعد ذلك، ولكن الطفل يدهش ولا يندهش .. إنَّه يسأل فقط وعلى الكبير أن يتدبَّر أمره بالجواب العجيب .

Twitter: @ketab_n

فآثر يرى السماء بحراً معلّقاً في الفضاء ويستفسر كيف أنَّ الأقلام مملوءة بالأشعار التي تأتي حمراء أوخضراء أو سوداء، حسب ألوانها. ويطرح الأحاجي على أبيه المهووس بجدلية التناسخ والتقمُّص ، ولهذا الأب أن يتواطأ مع الحقيقة فيقدم روايته عن الأشياء للطفل، ويسأله آثر : لماذا لا نتبادل فتكون أنت آثر وأنا حسين ، و سيسعده ألا يصير آثر حسيناً حتى لا يموت.. ولكن كبرياءه لا تسمح له بإبلاغنا أنَّه يتمنّى أن يصبح هو آثر لأنَّ في هذه الأمنية النرجسية رغبة في استمرار الحياة، على حساب حق الطفل البريء في أن يكون من يشاء . أمَّا إيمان ، زوجته التي أصبح اسمها بترا، فتذهب معه إلى مدينة البتراء في الأردن لتكون «بترا في مدينة اسمها». هكذا يتمثَّل حسين قول «بول كلي» الذي استشهد به: «إنَّ الرسام لا يرسم المرئيّ ، بل يجعله مرئياً».. وهو بدوره لا يخرج من الأشياء أسرارها كما أخرج «ميكيل أنجلو» تمثال موسى من الحجر، ولكنَّه أصغى عميقاً إلى نبض الوجود ، فإذا بالوجود يفصح عن نفسه . أجل ، لقد نجح حسين في أن يجعل العادي غير عادي وأن يدرجه في بلد الحكايات .

المواجهة السرمدية

تسهم شهادة حسين البرغوثي هذه ، بفعالية مؤلمة بقدر ما هي مدهشة، في ملفٍّ تعترف من خلاله الثقافة العربية المعاصرة ، بلحظة استثنائية لمبدعين وقفوا قبالة الموت وجهاً لوجه وشهدوا على ما شاهدوا . ربَّما كانت الشهادة الأُولى – على ما أعلم بحدود إحاطتي الشخصية المتواضعة – هي

Twitter: @ketab_n

كتاب «آلام» الشاعر السوري الكبير الرحل نديم محمد الذي قصَّ على الدنيا آلامه مع السل في ثلاثة مجلدات . ثمَّ كانت ملحمة الراحل العظيم بدر شاكر السياب من رهبة الموت ، إلى التماسك أمامه ، إلى كتابه الوصية «من مرضي – من الفراش الأبيض» إلى رثاء النفس :

«يا قارئاً كتابي
ابك على شبابي» .

إلى التأملات الشجاعة في المصير القريب التي أفصح عنها فقيد الشعر العربي أمل دنقل وهو يتحامل على الوهن وفتك السرطان الذي اكتشفه أوَّل مرَّة ليلة زواجه . وأمكن الشعر العربي أن يفوز بعودة شاعرنا الأول محمود درويش من تلك المحنة الصحية ، لا أعادها الله ، فكسبنا بذلك جدارية تضاف ، بالمعنى التاريخي ، إلى المعلَّقات العابرة للزمن . أما الكاتب المسرحي الكبير سعد الله ونوس فقدترك لنا أثرين خالدين من هذه الرحلة الموحشة ، الأوَّل هو الفيلم الذي سجَّله لـه صديق عمره عمر أميرالاي قبل أيام من رحيله ، والثاني كتابه «عن الذاكرة والموت» الذي كان بمثابة دفتر يوميات تشهد على المرض والألم والوطن والحياة بالتفصيل..
وما فعله حسين البرغوثي في «سأكون بين اللوز» كان فيه شيء مما كابده واكتشفه هؤلاء المبدعون ، وأشياء خاصة به جمعت الواقع إلى الحلم وسجلت انتصاراً للحياة بتعميق علاقة البشر بالحجر والشجر وتأكيد تواصل الروح الإنسانية مع الطبيعة. لقد تجاوز الدَّوْر الثالث عشر،

Twitter: @ketab_n

وواصل الهبوط إلى الأعماق. وكما أنَّ الكاميرا تعجز عن تصوير الزمان فإنَّ الكلمات لا تحيط بهذه التجربة التي لا يعود من ذهب فيها فيها ليخبرنا عمَّا رأى .

وكان إنجاز حسين البرغوثي ، في هذا الحيز المتحشرج الحرج ، هو ذلك الاطمئنان إلى الحياة في الطبيعة . لقد جاء بصور مذهلة للوديان والجبال والبشر ولكنَّه كلام غير الوصف الذي يوفِّر المقاربة الخارجية ، بل كلام يذهب إلى العميق والحميم فلا تعرف ما إذا كنت تقرأ نشيداً في وداع الحياة ، أم أنَّه فصل فلسفي تأملي في تمجيد هذه الحياة.

ثالثاً ودائماً

بعد شهر من رحيل حسين البرغوثي ، نشرت مجلة «الكرمل» الفلسطينية، آخر فصول «سأكون بين اللوز». ولما كانت قد نشرت الفصلين الأول والثاني من قبل، فقد يكون من حق القارئ المنضبط أن ينادي الفصل الثالث هذا ، هكذا : ثالثاً وأخيراً.. ولكننَّا ، لأمر يخصُّ هذه اللغة المتوترة العابرة للزمن ، لا نجد حرجاً في القول : ثالثاً ودائماً . لا من جهة السلوان والعزاء ، بل من تلك الجهة التي تنفذ منها لغة حسين إلى المطلق ، ليظلَّ الكتاب معنا، دائماً ، حتى بعد أن تنطوي الصفحة الأخيرة .. ثمَّ لا تنطوي السيرة..

بدأنا معه بتلك الصورة المخيفة لمن وصل إلى الدور الثالث عشر وهو لا يزال يهوي . لكنَّه يختطف من الوقت ما يكفي ليصف كيف سيكون بين اللوز . وإذا كان الموت – كما هو متوقَّع وطبيعي – بطلاً لهذا السفر

Twitter: @ketab_n

الغني المؤلم، فقد استطاع أبو آثر أن ينشئ ضفة ثالثة للنهر الذي يوازي بين الموت والحياة . إنّها ضفة الطفولة التي يسرح فيها طفل عمره أربع سنوات . اسمه آثر حسين جميل البرغوثي .

دائماً كان الشعراء يقولون : إنّ الطفل يعيد إنتاج الأب . لكن مأثرة آثر هي أنّه كان يضخ في روح الأب ديمومة تتأبى على الغياب ، حتى ليمكن القول إنّ حسيناً يغمض عينيه غير حزين ، على افتراض أنّه باق بألق جديد يحققه الطفل الذي – من حيث لا يدري – يكهرب مخيّلة الموجودات، فيكتب الأب : «كلُّ طفل ساحر بدائي . وله عصا كعصا موسى من كلمات مسحورة ، أول لفظة لفظها آثر كانت الطائرة ثمّ القمر والهلال». وقد يسأله قارئ متسرّع: وماذا في ذلك؟.. إلا أنّه يواصل: «كان يقول عن القمر إنّه يشرب الحليب ويمشي معي» . وليس ضرورياً أن نتأكد ما إذا كان آثر يقول هذا – فالأطفال يجترحون المعجزات – أم أنّ حسيناً كان يسمع ابنه لا بالأذن الفيزيائية ، بل بسماع القلب . أليس هذا ما قاله الشاعر الكبير بدوي الجبل وهو يناجي حفيده :

«يزفُّ لنا الأعياد ، عيداً إذا بكى

وعيداً إذا ناغى . وعيداً إذا حبا؟»

إلاّ أنّ الطفل المحصّن في قلب حسين البرغوثي يعرف كيف يلتقط هذه الأعياد التي كان يزفُّها لـه آثر. وعندما تتّم هذه الزفّة على يد الأب الذي يكتب وهو يسابق الزمن ، فإنّ الشواهد الحميمة على ما قاله الطفل أو ما

Twitter: @ketab_n

تخيَّل الأب أنَّ الطفل قاله ، تكون بمثابة وردة الروح مرسلة إلى حديقة الحياة . إنَّه انتصار فرح الفطرة على صرامة الموت . إنَّ الأب الذي يزعجه انقطاع التيار فيحتج على شركة الكهرباء، ليجيبه الطفل بأنَّه يحتجُّ على شركة الثلج ، لأنَّ الثلج يندف بلا هوادة ، لهو أب قادر على النوم بين اللوز وهو في منتهى الغبطة. فعبقرية البراءة هي ما ينقصنا لنواجه القسوة والقصدية وسطوة الموت .

وهكذا فالأطفال يحرجون السوريالية بمقارباتهم المباعدة المفاجئة. ومع ذلك فإنَّ لهذا الطفل ، آثر ، أنَّه ابن أبيه.

واللافت بقوَّة ، في كتاب حسين هذا ، هو استدعاء أغاني فيروز بنبرة تجمع البراءة إلى الحسِّ الريفي . وقد كان استحضار الأغاني مرتبطاً ، دائماً ، بالصوت أساساً . إنَّها مؤثرات صوتية لهذا المشهد الكوني المهيب ، حيث يدلفُ الصوت النقي إلى القلب مباشرة ، فيوقظ حاسَّة الرؤيا قبل حاسة السمع لدى شاعر يواجه الموت ، بل ينتظره ، فيما تزفُّه الطبيعة والذكرى والحدس والتأمُّل في الوجود ، إلى محطته الأخيرة بين اللوز . هكذا تأتي الأغاني بمثابة خطوط تحت الكلمات النوعية التي تؤكِّد عمق الصلة بهذه الحياة، وتعزِّز الحوار الذي أنشأه حسين البرغوثي مع الطبيعة في مكاشفة نادرة لاستقصاء سرِّ الوجود .

وغير بعيد عن الطفولة وصوت فيروز، يقف الوطن . لا كمقرّر مدرسي متهجِّم ، بل بما هو لحظة نداء تستلهم فرح الحرية من معنى الانتماء .

لا أذكر ، في الوقت القليل المكثَّف الذي أتاح لي معرفة حسين البرغوثي

Twitter: @ketab_n

عن كثب، أننا أتينا على سيرة «فرويد» وتحليله النفسي . لكنني ما أحسبه إلّا موافقاً على ما ذهب إليه «فرويد» من أنَّ الحياة «تعمل في خدمة تدبير سام أعلى يصعب التكهُّن بطبيعته . لكنَّه تدبير يؤثر في اكتمال الكينونة البشرية» . ولا أرى هذا منطبقاً على الواقع إلّا كما أتخيَّل هذا الواقع في علاقة حسين بابنه آثر . إنَّ تدبير الحياة السامي يحقِّقه الطفل ابن السنوات الأربع، حتى ليرحل الأب سعيداً . وكأنَّه في إجازة ليستريح قليلاً بين اللوز. وهو عائد ، لا بُدَّ ، مع الربيع والصيف والخريف والشتاء معاً .

إنَّه حولنا فالتفتوا لتروه .

أهلاً يا أبا آثر ... ولك المحبة والرحمة والحضور ..

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سأكون بين اللوز

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

«الدير الجوّاني»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بعد ثلاثين عاماً أعود إلى السكن في ريف رام الله، إلى «هذا الجمال الذي تمَّت خيانته». نفيت نفسي، طوعاً، عن «بدايتي» فيه، واخترت المنفى، وأنا ممن يتقنون «البدايات»، وليس «النهايات»، وعودتي ، بالتالي، «نهاية» غير متقنة.

كان القمر بدراً، والهواء صقيعياً في جنائن اللوز حول بيتنا وأنا أتجوَّل بين الظلال وأتأمَّل في هذه «النهاية». أرجعني إلى هنا مرضي بالسرطان، ووجع في أسفل الظهر مستمر إلى حَدِّ الملل. والملل، كما قال عنه كيركيغارد: «مرعب إلى حدٍّ لا يمكنني عنده أن أصفه إلاَّ بالقول بأنَّه مرعب إلى درجة مملة». والمرض، عندي، وجهة نظر في الحياة.

لم يعد لي من مكان في كلِّ هذه «الانتفاضة» إلاَّ التردد، بشكل مملٍّ،

Twitter: @ketab_n

أيضاً، على مستشفى رام الله، فهو الآن كعبتي أو حائط مبكاي الأخير. هناك متَّسع لي بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاجة حفظ الموتى تحت. أعني بأنَّني معاق تماماً، وأطوف على حافة الأحداث، في ضواحي الأشياء. مثلاً، في ممرَّات المستشفى الغريبة، ممَّرات تسكنها كائنات بقبعات خضراء وأردية خضراء، خبيرة في «التشريح»، تمشي وراء عربات عليها مخدَّرون لم يفيقوا بعد، أو لن يفيقوا أبداً. وفي باب غرفة الطوارئ تتدفَّق سيارات إسعاف عليها رسم هلال أحمر كالذي كنت أراه خلف الجبال، جرحى وشهداء، وأنا تائه أسأل عن دكتور أمراض الدم .فتردُّ ممرضة متوترة: «نحن في حالة طوارئ، ألا ترى؟». فأدرك أنَّني شخص زائد عن الحاجة، مريض متطفِّل يمشي نحو مصيره وحده، بهواجس فردية، لست «زائراً»، ولا «معافى»، ولا جريحاً ولا على وشك الشهادة، بل «مريضاً عادياً»، أي لفظة حائرة بين قاموسيِّ الموتى والأحياء، بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاجة الموتى في الطابق السفليِّ..بماذا يشعر كائن قدره أن «يراقب»، ممنوع عليه «التدخُّل»، ويشمُّ رائحة الأدوية، بدل الزعفران، بين طابقين؟

هذا ما أرجعني إلى الريف، إلى جمال سبق وخنته، رجعة غير محكمة الحبكة.

كنت أخطِّط للعودة من زمن. فزرت جبال طفولتي، ليلاً. كان القمر كاملاً، والصمت شاملاً، بين خرائب «دير» قديم ومهدَّم، في قمة جبل بعيد عن القرية. وقفت هناك أتأمَّل البدايات والنهايات. فجأة حدث شيء غريب

Twitter: @ketab_n

فعلاً.سمعت صوتاً يشبه بالضبط بكاء طفل صغير، يأتي من جنائن التين والزيتون المقمرة، وقف شعر رأسي من الذهول، وحدّقت في تفاصيل الظلال، والصخور البيضاء، و لم أر أحداً. بدا الصوت وكأنّه يأتي من كائن لا يُرى في هذا البرِّ الواسع.

مشيت نحوه بحذر، خائفاً ومندهشاً، فواصل بكاءه، ولكنّه كان يبتعد كلّما اقتربت. أسرعت و لم أصله. قطعت عدّة جنائن وكان لم يزل بعيداً عنّي بنفس المسافة. رجعت من حيث أتيت، وقلت بأنّ هذه جبال بها «شبه الجنون»، أو مسكونة بالجنّ، أو مختلفة، ببساطة. ولكنّ الصوت لحق بي، واقترب إلى حدٍّ محرج ومخيف. حملت عصا واتجهت إليه، وأنا لا أرى غير شجر قصير مقمر. كان في الحقل الأوّل، ولمّا وصلت بدا وكأنّه يأتي من الثاني، واحترت تماماً. فكّرت بأنّ هذا قد يكون «ضبعاً». ولكن ليس لضبع صوت بهذه الرقّة، بهذا الحزن، والطفولية، والشعور الماورائي. على كلٍّ، قد يكون «ضبعاً». والضبع يخشى من النار، ويهاجم المنفردين مثلي، وقيل بأنّه يرشق بوله على وجه الضحية كي يتخدّر حسّها بالأشياء. أخرجت علبة كبريت من جيبي، ورجعت نحو خرائب الدير، ووقفت هناك أفكّر.

كانت أمي يتيمة، وعاشت زمناً ترقص وتغنّي في مواسم فلاحي المنطقة. وتبنّاها عمٌّ لها يدعى «قدورة»، شيخ عملاق وصلب، كان يسكن مع أخيه، على ما أعتقد في هذا «الدير»، وكانا قاطعي طرق مسلّحين، أيضاً. إن اختفت فرس أو بقرة قالوا إنّها في «الدير الجوّاني»، و لم يجرؤ أحد

Twitter: @ketab_n

على الذهاب إلى هناك.

في ذات ليلة كان راجعاً إلى الدير على ظهر حماره، ورجلاه تتأرجحان فوق الطريق المقمرة، فلقفت قدمه اليمنى أفعى «زعراء» (قصيرة وملوَّنة وسامَّة جداً). نزل، وقفز قفزات متوالية قبل أن تفلت قدمه من نابها، ووصل الدير منهكاً، ومات هنا، حيث أقف، ربمَّا. كانت أُمي تقسم لي، وأنا طفل، أنَّها رأت الأفعى «الزعراء» نفسها تطير فوق الجبال المقمرة وتزغرد لأنَّها قتلته. ومرَّة قالت بأنَّها أفعى لها قرنا ثور هرم، ويتحرَّك العشب اليابس من زفيرها، وتدعى «أفعى القصبة».

خطرت ببالي «ذاكرة المكان» هذه، وأنا واقف فوق الخرائب. غرباً، في قمة جبل مغطَّى بغابات صنوبر وسرو وبلوط، تشعُّ أضواء النيون من مستعمرة إسرائيلية تدعى «حلميش»، عندهم، و«مستعمرة النبي صالح» ، عندنا. أضواء باردة، وكاشفة، ومحاطة بأسلاك شائكة. وبدت المستعمرة معلقَّة في الفضاء، ربما بسبب الضوء، أيضاً، و لم تلمس الأرض، ولا التاريخ بعد.

ماذا يرى مستعمر جاء من روسيا أو أستونيا، ربمَّا، قبل سنة فقط، حين يفتح الآن شباكه، ويحدَّق في هذه الجبال نفسها التي أنا فيها؟ ماذا يرى، أو يدرك من هذه الجبال التي تسبح في تاريخها وتبزغ منه؟ لن يرى ، حتماً ، الأفعى الملونَّة التي تطير وتزغرد فوق الخرائب ، ولن يسمع هذا الصوت الذي يبكي، ولا هذا السرَّ الذي يجعل حتى مصاباً بالسرطان يمشي فيها في الواحدة ليلاً! لن يلمس التاريخ، ولو كان عرَّافاً، ليس تاريخي أنا، على الأقل، ولو كان إلهاً.

Twitter: @ketab_n

وأنا واقف فوق الخرائب تلك، شعرت بفرق شاسع بين نوعين من «الضوء»: القمر والنيون في المستعمرة. كان الأخير مرتّباً، ومهيمناً، حادَّ البياض، منتشراً حتى وراء الأسلاك الشائكة التي تعزل كلَّ مستوطنة عن محيطها، أشبه ما يكون بـ «رؤيا مسلَّحة»، باحتلال بصري، ومعمار ضوئي لدولة تهذي حتى في منامها برؤى مسلَّحة ومضاءة بالنيون. وبدت المستعمرة كلُّها كتاباً في النفس، أيضاً: في العلاقة بين «القوة» و «الضوء»! لم يدرس أحد، بعد، العلاقة بين القوة والضوء!

وبدا لي بأنني أرى «ذاكرتين» معاً: ذاكرة الأفاعي التي تزغرد وهي تطير، وذاكرة من رؤى وأساطير مسلحة تحلم بإبادة الأفاعي. (أو لم يقل إسحق شامير، رئيس وزراء إسرائيل السابق، في الانتفاضة السابقة، بأنَّ العرب «أفاع»؟). وبين الذاكرتين، ذاكرة الضحية وجلادها، ما يشبه الوادي، أو «الهوَّة»، صدع عميق ما، وأنا واقف على شفير هذا الصدع اللامرئي. هل يمكن لهذا الصوت الغريب الذي يشبه بكاء طفل صغير في هذا البرِّ المقمر أن يكون قادماً من أعماق الصدع؟

لمَّا رجعت إلى بيتنا سألت خالاً لي، أكبر سنّاً منّي، وذاكرة، عن الصوت قال: «هذا صوت حيوان صغير يدعى الـ «غريريا». كانوا قديماً يطاردونه بكلاب الصيد والبنادق، ولحمه لذيذ، والآن انقرض تماماً. ربما أنَّك سمعت صوت آخر «غريريا» في هذه الجبال!». قلت لنفسي: لا، رأيت غريريات أخرى كثيرة في مستشفى رام الله، كن يلدن ويولدن في الطابق العلوي، فوق، أو يحفظن في ثلاجة الموتى، تحت، لكن رأيتهن ...

Twitter: @ketab_n

أدمنت العودة نحو الدير الجوّاني، وكأنّني مأخوذ بالوقوف في مهبّ ذكريات أهلي القدماء هناك، وأحاول تركيب «بداياتي»، من «نهاياتهم». مثلاً، كنت أحاول أن أتخيّله، عمّها، «قدورة» هذا، واقفاً فوق سطح الدير، مشرفاً على أودية عميقة ومقمرة، وعلى جنائن متدرّجة، محروثة ومزروعة، وهو يعزف على ربابته. حلفت لي أُمّي بأنّهم كانوا يسمعونه من القرى المجاورة والبعيدة. أتخيّله وقد علّق فوق كلّ جدار من جدران الدير الأربعة بندقية، وصعد الدرج الحجري الضيق، وفرد عباءته تحته وبدأ بالعزف. لا أحبُّ الربابة ، بل الناي، وأحاول أن أتخيّله، قاطع الطرق هذا، وهو يعزف الناي!

قيل إنَّ في القصب سرّاً إلهياً، كان الله سبحانه قد أودعه في صدر النبي محمّد ، و لم يستطع النبي تحمله فباح به إلى علي بن أبي طالب ، وأمره أن لا يبوح به لأحد. و لم يستطع عليٌّ تحمله، أيضاً، فذهب إلى واد عميق وبعيد وباح به لقصب ذلك الوادي. من يومها وكلُّ ناي من القصب تصدر عنه نغمة هي سرٌّ إلهي ممنوع لفظه بالكلام. وحزن الناي، كما يقول مولانا جلال الدين رومي ، حنين الخشب أو القصب الذي صنع منه إلى غاباته الأولى التي قطع منها، إلى «أصله»، أو «واديه الأوّل». فإلى أي أصل كان يحنُّ «قدورة» هذا؟ وإلى أية بدايات؟

■

Twitter: @ketab_n

من حيث يعزف، فوق سطح الدير، كان تقريباً يستطيع أن يرى قرية «دير غسانة». أصل قبيلتنا، وأصله، من هناك. الأصل الأقرب، على الأقل.

مرَّة اختلف شيوخها معاً، فتسلَّل جدٌّ جدي، في ليلة مقمرة كهذه، إلى بيت كانوا ينامون فيه، وذبح اثني عشر رجلاً من أقاربه هناك. ثمّ حمل خيوله وجماله ونساءه وأولاده، وهرب إلى هذه البقعة النائية التي سأولد فيها، بعد قرن ونصف على «هذه البداية».

وقدورة من هذه «السلالة» الهاربة. وأخوته أربعة، بعدد بنادقه التي علَّقها على جدران الدير. وكان «كايد» أكثرهم سطوة وسكن معه في «الدير الجوَّاني».

قيل: إنَّ كايد هذا، ذات ليلة، كان يركب فرسه البيضاء، فمرق صدفة أمام ديوان حمولتنا، حيث كان شيوخها يسهرون، فرأى قدورة خارجاً من هناك يزفر غضباً لأنَّ أحد الشيوخ قاطعه عند الكلام. دخل كايد وأمسك بالشيخ من قميصه وقال له : «كبرت قرونك في غيبتي، وأنا من سيكسرها».

وكان ساعد قدورة الأيمن. مرَّة تسلَّق بالحبال أسوار قلعة لشيخ كبير في المنطقة، وفتح البوابات من الداخل، ليلاً، كي يسوق الخيل والبقر معاً، فاستيقظ الحراس وقبضوا عليه، وسجنوه. ولمَّا وصل الخبر إلى «الدير الجوَّاني»، قالت أخته: لا تخافوا عليه، بل على ماذا سيحدث للقلعة. وبعث قدورة بقصاصة ورق تنذر الشيخ بإطلاق سراحه في ثلاثة أيام، وأطلق سراحه.

Twitter: @ketab_n

ليس غريباً أنَّ جنازة كايد هذا كانت خاصة : عندما شاع خبر موته في ذات ليلة خرج نفير من رجالات قريتنا إلى السطوح والساحات، وبيد كلٍّ منهم عصا عليها خرقة مبلولة بزيت الزيتون أو القار ، وأشعلوا المشاعل ، ورقصوا حتى الصباح احتفالاً بموته.

وأمَّا قدورة فعاش زمناً بعدها حتى مات بلدغة الأفعى التي تزغرد، وتشرَّدت ثلاث «إناث» كن في حمايته : زوجته، وأمِّي، وربابته.

زوجته كانت مدمنة على شمّ الـ «سعوط»، وسميِّت، بالتالي، «سعوطة».

تركت «الدير الجوَّاني» الذي بدأ يقفر، وسكنت بيتاً حجرياً قديماً في القرية على النمط الصليبي: بوابته من خشب ثقيل، وجدرانه وسقفه أشبه بقوس حجري واحد، وكلُّه يشبه نفقاً بدأ لي، وأنا طفل، بلا حد. كانت أمِّي تبعثني للنوم عند «سعوطة» فيه، أحياناً. استيقظت مرَّة على ضوء سراج شاحب ينتشر بصمت في أرجاء هذا المكان الأشبه برحم غريب ودافئ، وكانت تلهث، وتشمُّ السعوط، وتتمتم أدعية وتعاويذ غامضة.

قيل: إنَّ الجنين يسمع صوت الدورة الدموية في رحم أمِّه وكأنَّه هدير بحر، وبعد الولادة يغفو على أي صوت يشبه هذا الهدير الرحمي، أي الإيقاع الأول. كنت أشعر بهذا الإيقاع في صوتها، وذبذبة شعلة السراج تزيد الإيحاء. كانت واقفة كالأم الأولى، أمُّنا الأرض، وعلى رأسها لفَّة قديمة باهتة الألوان، مطرَّزة بسلاسل من عملة فضيَّة عثمانية ترنُّ كلمَّا حرَّكت رأسها، وعلى ذقنها وفوق شفتيها العريضتين وشم أخضر غامق يقترب من الكحلي. ومشت ببطء نحو البوابة ثمَّ نحو السراج، ووقفت

Twitter: @ketab_n

تفكّر في شيء ما. والدنيا مطر في الخارج، وريح.

كانت أصبحت، بعد موت قدورة، «داية» القرية. يأتونها حتى في مثل هذا الوقت، كي تسخّن الماء في إناء نحاس على نار موقد، وتتمتم أدعية عن فرس أصيلة سوف تنهض بالسلامة، وتسحب الوليد الجديد من رحم أمّه. كم كنت أحاول أن أفهم ليل الولادات الجديدة هذا، وماذا تفعل «سعوطة» فيه، وكيف تعيش من هذه المهنة السحيقة. وفي الميلاد لغز، كالرحم، والأم، ومشاعر «سعوطة» نفسها.

انتهت «سعوطة» مهانة ومذلّة، عندما وضعتها ابنتها الوحيدة في ملجأ للعجزة في رام الله، لأسبوعين فقط، وانكسر شيء في روحها، ولمّا استعادتها من هناك، ماتت بعد فترة قصيرة، وأغلق بيتها الصليبي إلى الأبد، حتى انهار هو الآخر.

وأمّا أمّي ، فهجرت «الدير الجوّاني» ،هي الأُخرى، ووقعت في حماية أقرباء ليست فيهم لا رجولة قدورة ولا كرم روحه، وقالت لي، مرّة، بأنّ الله بنى سوراً حول قلبها، و لم تعد تشعر بأحد، أيامها، أو ربمّا «من أيامها». وأحبّها أبي، رجل من سلالة قدورة نفسها ، وفيه «العرق» نفسها، وربمّا اللعنة العائلية نفسها، وأراد الزواج منها، ولمّا رفض أقرباؤها دعى صديقاً له يدعى يحيى، وقعدا في باب البيت، وفي حضن كلٍّ منهما بندقية ، وقالا بأنّهما سيقتلان «كلّ من تخوّل له نفسه أن يتزوّجها». ولمّا فاز بها سافر في «شهر عسل» إلى عمّان، ثّم عاد وزرع لها الجنائن حول بيتنا باللوز.

بعد عقود انتهى يحيى سائق شاحنة بين الأردن والكويت، في هذا الطريق

Twitter: @ketab_n

الصحراوي الذي تصل الحرارة فيه (45) درجة مئوية في الظِّل. طريق مستقيم يمتدُّ إلى الأبد.

كان يضع حجراً على «دعسة البنزين»، ويربط المقود بخيط كيلا يتحرك، وتمشي الشاحنة وحدها. وفي يوم ما وجدوه ميتاً في الشاحنة، وهي تمشي به وحدها، ربمَّا باتجاه حقول النفط.

■

لم يمت قدورة كلَّه حين لدغته الأفعى الزعراء: بقيت ربابته! و لم أزل أسمع أصداءها في الفراغ الذي يفصل «بدايتي» عن «نهايته». ليتني أقدر أن أخرج فيلماً يُدعى: «سيرة حياة ربابة».

ورثها أبي عنه، وغنَّى عليها حتى سنة (1948)، و لم يعد يغني أيَّ شيء في حياتي، ولا يلفظ أيَّة لفظة قد تشير إلى أيِّ حسٍّ عنده بالغناء. كان وكأنَّه قد نسي صوته تماماً. وأعطى الربابة لأخ له مشهور بصمته. يتربَّع أمام بيته إلى الأبد، ويدير بصره في الجبال المفتوحة، حتى اشتهر بحدَّة البصر، أيضاً. إن ضاعت فرس قال: ابحثوا عنها في الجبل الفلانيِّ، وإن زرع أحد حقلاً بعيداً بالخضار قال بأنَّه رأى غزالاً يقضم ما زرع.

قيل إنَّ صوته من أجمل أصوات منطقة رام الله قاطبة، ولكنَّه اختار الصمت لسبب ما. مرَّة سألته عن أسعد أيام حياته فقال: «عندما كنت ألعب بالتراب بطاقيتي وأنا صغير». وصدأت ربابة قدورة عنده، وتحلَّل

Twitter: @ketab_n

وترها من كثافة الصمت. مرَّة واحدة فقط، سمعته يغني، في خلال أربعين سنة، وليس لأكثر من برهة، في عرس ابنه.

كان ديوان قبيلتنا مضاء ليلتها بمصباح كبير، وبفرح، وبقهوة عربية، وكان غناء نساء يأتي من بيت قريب، بيته، وكلٌّ كائن بدا فرحاً، إلاَّ هو ، كان وكأنَّ قوَّة فيه تربَّت على مقاومة الفرحة. وكان قاعداً في صدر الديوان، في عباءة خردلية ، وعقال أسود ، ووقار يليق بشيخوخته، ويدير بصره في ملامح الحضور بصمت ، وكأنَّه يتأمل امتداداً آخر للجبال . فجأة بدأ الكلُّ يصمت، ولو وقعت إبرة لسمعت رنَّتها، ثمَّ قام شيخ واقترب منه، وحلَّفه بالله وفرحة ابنه أن يغنِّي. كنت قربه، ولاحظت رعشة لا شعورية في أخاديد وجهه رقص منها «خال» داكن قرب أنفه.أغمض عينيه لمدَّة، ثمَّ سمعت صوتاً لم أسمع شبيها به في حياتي :

«جبولي العرق بيضا في كأسي

وقالوا لي : افرح.بعد ما شاب راسي».

و لم يكمل. و لم يكسر أحد الصمت ليقول له: أكمل.

■

والصمت موسيقى. هذه حكمة قديمة، ولكن قلَّة تعرف أنَّ الصمت أنواع. في «الدير الجوَّاني» نوع غريب من الصمت، والدنيا قمر، والهواء صقيعي. مثلاً، أمام مغارة رومانية ذات باب صغير ومستطيل كان فيها، قديماً،

Twitter: @ketab_n

حوض ترسَّبت فيه مياه فوق هياكل عظمية متحلِّلة، وجماجم، ودَّمره لصوص الآثار بحثاً عن الذهب.

وصلت إليها عبر طريق قصير فيه حرش صنوبر وسرو وزعتر بريٌّ.صمت شامل، وقمر، ورأس صنوبرة يهتزُّ من نسمة خفيفة. فجأة سمعت «عطساً»، عطساً مكتوماً وخافتاً، ليس لإنس ولا جن . وكان يقترب منِّي، فوقفت محتاراً. وفي لحظة أسرع من حلم رأيت قطيع غزلان يعبر الطريق، ويتقافز ويعطس، وكلُّ غزال يبدو معلَّقاً في الفضاء لوهله ثُّم يقع، كنت كأنَّني أرى قطيع ظلال غامض ، والشجر كان داكناً، ولكنَّه أوشك أن يغنِّي. ثمَّ حلَّ صمت مخيف، وكأنَّ شيئاً لم يكن، صمت أشبه ما يكون بمرور زمن سحيق على جمال ساد ثمَّ باد .

وقفت كمن وقعت على رأسه الطير ، ثُّم خطر ببالي أنَّ صيَّاد غزلان قد يكون نصب «فخّاً» لها، ولي، من هذا النوع الذي يكسر حتى عظم الفخذ، وسأقع فيه، أو قد يكون هناك ضبع فرَّت الغزلان منه، ويكمن الآن خلف صخرة أو عرق شجرة.

لا يستيقظ في العزلة إلاَّ ما هو كامن فينا أصلاً. واستيقظت فيَّ وساوس كثيرة. أمامي مرج واسع، محروث، خالٍ، مقمر، ويمتدُّ حتى أسوار الدير. والإنسان، أي إنسان، يخاف من الفراغ. خفت العبور في المرج مكشوفاً من كلِّ جهة. هناك غرسات زيتون صغيرة ، أشبه بالظلال الداكنة ، بدت لي تشبه رهبان الدير القدماء، وهم يلبسون السواد ، ويغنون لـِ «ساكن العالي» :

Twitter: @ketab_n

«من هالمرج الواسع
إيدينا مرفوعة
زي الشجر العالي».

أعني أنَّ هناك طاقة روحية خاصة تطفح من هذه البقعة، وإن فقدت تركيزي، أو نمت، ستستيقظ «قوى المكان» الكامنة، وكأنَّ كلَّ شيء فيه، حتى الحجارة ، حانت مواعيد عودته للحياة.

عبرت المرج وكأنَّني مخَّدر، أو منَّوم مغناطيسياً، على هذه الحافة بين اليقظة والحلم، بين السحر والوقائع، في حقول الصمت الشامل، هذا النوع من الصمت الشامل. لا أحبُّ أن يكون معي أحد هنا. فالإنسان كائن قادر على لفت نظر الآخرين إليه، وأريد المشي هنا منسياً، لا أنتبه إلى أحد، ولا ينتبه إليَّ أحد، لأواجه وساوسي وحدي.

وصلت باب المغارة، ووقفت. شعرت وكأنَّ هناك جماجم أجيال تتقلَّب تحت العتبة . وشعرت بأنَّ الإنسان ظلٌّ خفيف ومقمر يتأرجح بين قوَّتين: قوَّة الهيكل العظمي المسجَّى في حوض ماء من أيام الرومان، وقوَّة تصعد به نحو الأعلى، كالسرو والصنوبر والغزلان والزعتر البري. وتتكاثر حوله، في مرج الظلال المتوسط هذا، حكمة الثعالب، كما قال محمود درويش، حكمة تهتف به أنَّ «عش لجسمك، لا لوهمك، عش للحمك، لا لحلمك»!.

وكنت منهكاً. فالسرطان إطلالة على جبلين في ناحيتين مختلفتين : جبل

Twitter: @ketab_n

اللحم غرباً، والحلم، شرقاً، جبل الجسم، تحت، والوهم، فوق. ورفعت يديَّ مثل الشجر العالي من هذا المرج الواسع، كي أبدو كزيتونة، لا ككهف. وربمَّا بدوت مضحكاً، ولكن من قال: بأنَّ هذا ليس حلماً أو وهماً أو صلاة، فلا توجد سماء أقرب إلى الأرض من سماء الدير فوق الجبل :

«هون السما قريبة

وبتسمع منا يا حبيبي».

وفينا كلُّنا قوَّة وراء الفيزياء. قعدت بعدها على سور الدير أمام المرج، ولكن، كما قال مولانا جلال الدين رومي : لن أقعد هنا كي أعدِّد بركات لا تفهمها الرياضيات.

وللمرج لون الملح الأبيض، ويشبه بلورات قمرية تكاد تشفُّ عمَّا في باطنها. وبدا لي أنَّني أرى فيه طريقاً بثلاث شُعَب، كما في حكايات أهلي عن الجن :

طريق «الوضوح»،

وطريق «الغموض»،

وطريق «اللاعودة».

كانت أمِّي تقول أنَّ الغولة تقعد على مفرق طريق بثلاث شعب ، وتضيء «سراج الغولة» (حشرة على رأسها نقطة مضيئة من الفوسفور وتطير ليلاً، فتبدو سراجاً هائماً، أو عيناً من أعين المكان) ، كي تغري به التائهين.

Twitter: @ketab_n

وتطحن ملحاً، وأثداؤها مردودة إلى الخلف على كتفيها. الغولة تموت إن ضربتها بالسيف ضربة واحدة ، ولكن، إن «ثنيت» عادت إلى الحياة، ولذا، إن قالت لك : «ثنّ»، قل لها: «إمي معلمتنيش». هذه كانت وصية أمّي لأميرها الصغير، الذي لم يكن يملك، بعد، إلّا سيف خشب.

ولكن، في أيَّة شعبة مشيت، في بداياتي ؟ ليس في طريق الوضوح، فقد عشت تائها ثلاثين عاماً، وليس في طريق «اللاعودة»، فقد عدت إلى الدير، وبالتالي، مشيت، حتماً، في «الغموض».

■

والهدم نملة!.

كنت أحسد الرعاة على حريتهم وبراريهم، وأحلم، وأنا طفل، بأن أكون راعي إوز، أو حجل، أو غزلان. وسبب ذلك حكاية أُمّي عن أمير كان يملك قلعة فيها ما لذَّ وطاب، وفيها كثير من البهم والدجاج وأبراج الحمام.ولكنَّه كان بخيلاً. وفي ذات يوم مرَّ عليه سيدان غريبان على فرسين: سيِّدنا «الخضر الأخضر»، وسيِّدنا المسيح. وعزَّ عليه أن يذبح لهما من غنمه أو طيوره، فذبح طفلاً يتيماً كان في حمايته، وطبخه باللبن، وقدَّمه لهما على صينية .

نهض سيِّدنا الخضر وقال : «قم يا ذبيح اللبنية». فانتفض اللحم المطبوخ ونهض الطفل أمامهما. فدعى سيدنا الخضر الله سبحانه أن يحوِّل كلَّ

Twitter: @ketab_n

أغنام الأمير إلى غزلان، وكلَّ دجاجه إلى حجل بريٍّ، وكلَّ حبشه إلى إوز في الجبال. وهكذا كان. أما الليل فساد الأرض منذ لحظة ذبح الطفل، والنهار منذ بعثه حيّاً يرزق من صينية اللبنية.وتخيَّلت ذلك الطفل الذي تركت «حكايات أهلي عن المكان» مصيره غامضاً، راعي إوز أو غزلان أو حمام بري. أردت بأن أعيش معه، ولمَّا كان حلمي مستحيلاً، فقد صرت أحنُّ إلى مرافقة من يشبهونه : الرعاة!.

ألححت على أمِّي فاشترت لي شاة حمراء، وشيطانة، وأخفُّ من غزالة في الهرب منِّي، وبحجَّة رعيها صرت صديق صاحب أكبر قطيع في الجبال. وقبلني «علي الراعي»، لأنني كنت أرعى قطيعه كلَّه، وليس لي فيه إلاّ شاة حمراء. كنَّا نخرج من القرية في أوَّل الصبح، والندى متجمّد ويلمع فوق العشب كندف الثلج، والهواء بارد. وفي عزِّ الظهيرة – وهي، عند الرعيان، الوقت الذي يصل فيه ظلُّ عصا مزروعة في الأرض إلى أقصر مدى لـه ، فيكاد يختفي في العصا– «نورّد» القطيع إلى «قتيلية».

وتلك عين تبعد مسيرة ساعة عن «الدير الجوَّاني»، إلى الجنوب، و تنبع من شقٍّ في أسفل صخرة عظيمة لا يتسلَّقها إلاَّ شجر كالعلّيق والبلوط أو كلب خفيف، وحولها بساتين مروِّية من كلِّ ما يلذ ويطيب من الفواكه، كلُّ صنف حسب موسمه، خوخ، وتفاح، ومشمش، مثلاً. أتمدَّد في الفيء فوق الصخور، وأغمض عينيّ لأسمع بقبقة الماء حين يصبُّ من النبع في بركة بريَّة، قبل أن يتوزَّع في البساتين. وعلي الراعي تحت الخروبة على حافة الواد يعزف الناي، ولكن بفمه فقط، ولا ناي

Twitter: @ketab_n

في يده، وأذهلني ذلك.

وعلي شاب أسمر لفحته الشمس، وجسمه مشدود كرجل غزال، ويعرف رائحة وطعم كلّ نبتة في الجبال، فهو وريث «سلالة الرعاة» في هذه المنطقة، منذ استئلاف الماشية في العصر الحجري حتى الآن. حلب الغنم في إناء من الألمنيوم، وعصر فوقه قطرات من «حليب التين» (سائل أبيض، حمضي، إن لمس الأعين التهبت بحدّة، وينزّ من عرق ثمرة التين المقطوعة عن أمّها وهي لم تزل فجّة)، فتخثّر حليب الغنم إلى جبن لذيذ جداً، بمذاق التين.

وعلي لا يعرف إلاّ البراري، حتى أسماء إخوته وأخواته أسماء طيور، مثل «عصفور»، و«عصفورة». ويحبّ ثلاثة أشياء : بندقية الصيد، والناي. والكلاب ولكلّ شيء طقوسه. مثلاً، كان لا بدّ له أن يسرق الكلب وهو لم يزل جرواً، ثم يقصّ أذنيه وذنبه ويعقم جروحه بالخلّ والليمون وبعض الأعشاب. «عندما سيشتبك مع ذئب أو ضبع أو كلب آخر، قد يمسك به الذئب، مثلاً، من أذنيه أو ذنبه. ومن الأفضل أن يكون بلا ذنب أو أذن!». بعدها يدرّبه على شيئين : العنف المطلق، والطاعة. يصفّر له فينهش كلّ مَنْ أو ما يشير إليه، ويصفّر له صفرة أخرى فينام تحت أقدام صاحبه كخروف.

في يوم ما قال بأنّه سيحتفل بي. فصنع فخّاً من حبّة قمح : نقعها في الماء حتى انتفخت، وخرمها بإبرة، وأدخل في الخرم خيطاً فصارت تشبه صنارة صيد. وفي أوّل الصبح في القرية رأى دجاجة في الحارة فرمى

Twitter: @ketab_n

الحبَّة أمامها، فابتلعتها، ثمَّ سحبها وراءه بالخيط، وهي غير قادرة لا على لفظ حبَّة القمح من حوصلتها، ولا على الخلاص من الخيط، ولا على القوقأة. وفي الليل، حول العين، شواها على النار.

كان القمر ليلتها قرصاً أحمر يطلُّ من آخر الأودية ، والبهم هنا وهناك ، تمشي أو تنام بين الظلال . تعرَّيت تماماً، ثمَّ نزلت أسبح في البركة. وعلي يعزف الناي بفمه. فجأة قال بأنَّني أسبح في الدمع! قديماً، قبل أن يولد هو، قال: كانت هناك امرأة جميلة جداً قتلها أهلها، وكانت مظلومة، فتحوَّلت إلى حورية تسكن في الينابيع البرية. وسكنت هذه العين فسمِّيت «عين القتيلة». وتخيَّلت الشقَّ الذي تنبع منه العين في الصخرة عين حورية تبكي فيتجمع دمعها في بركة كبيرة ثُّم يتفرع في قنوات تروي البساتين من حولنا.

كانت ظلال البساتين، بسبب ضوء القمر، توحي بمخاوف شتى، وعلي يعزف بفمه نغماً غير مألوف، والواد بدا طريقاً ملتوياً مضيئاً كطريق التبان، وأمَّا الجبل فبدا امرأة نائمة تحت القمر. وقف، وكأنَّه شمَّ رائحة ذئب أو ضبع، على صخرة قرب الخروبة، والبندقية في يده، وصفَّر، فجاءت الكلاب والتفَّت حوله. صمت. صمت خاص وشامل، لولا أزيز الصراصير تحت الخروب وفي الواد.

وتذكَّرت حكاية أبي عن تاجر كان يبيع الخوخ والمشمش على ظهر حماره، ينزل منحدرات الجبال إلى حيفا، ويافا، ويرجع بعد مدة. كان راجعاً في الليل، ومعه «كاز» من يافا، فأخذ ضبع يتحرَّش بحماره، وكلَّما

Twitter: @ketab_n

حكَّ الضبع جسده بالحمار رشق التاجر عليه رشقة «كاز»، وأخيراً رمى عليه بعود كبريت مشتعل، فاشتعل، وركض في الجنائن كمشعل مسَّه الجنون، ودبَّت حرائق خلفه وحوله.الضبع أسطورة الجبل.قيل بأنَّه يخطف عقل الرجل التائه المنفرد، فيلحق به وهو يهتف : «يابا! يابا». وكأنَّ هناك لحظة يتحوَّل فيها الأب إلى ضبع، والضبع إلى أب، لحظة كلٌّ من تمسّه يدعى «مضبوعاً». ويركض المضبوع خلف «أبيه» فلا يستيقظ من حالته إلاَّ عند باب مغارة الضبع، عندما يصطدم جبينه بأعلى باب المغارة، فيسيل دمه على جبينه ويعرف أنَّه كان يلحق ضبعاً لا أباً، ولكن الوقت متأخِّر، وبعد قليل سيقولون: «أكله الضبع».

ليس غريباً، إذن، أن يقف علي الراعي على الصخرة، ويصفِّر لكلابه، وفي يده البندقية. فعلي الراعي، كهذه الأفعى التي تزغرد وهي تطير، أو كالضبع، أحد أبناء هذا الجبل، ومن ترابه نفسه ، ويشبه نغماً فيه ناي حزين، وفيه نفحة البراري الموحشة، أيضاً.

كبرت، وتركت علي الراعي لبراريه. ولم أسأل عنه ولا مرَّة إلاَّ عندما أصبت بالسرطان، وبدأت أتسلَّل إلى جبال طفولتي سرّاً كي أعود إلى السكن في ريف رام الله، إلى «هذا الجمال الذي تمَّت خيانته». قيل لي بأنَّ المخابرات الإسرائيلية اشترت له كلبي صيد من تل أبيب، وتسلَّلت إلى قلبه عبر حبَّه البدائي والغريزي للكلاب. ولم يدر أنَّ الكلب يمكن أن يكون «فخّاً»، كحبَّة القمح. وفي ليلة ما، قبل الانتفاضة الحالية بقليل، سمعت بأنَّ أحد أقاربه طرق بابه، وكان يسهر عنده دائماً، ولم يساور علي الراعي أيَّ

Twitter: @ketab_n

شكٌّ غريب عندما فتح الباب وخرج، ففوجئ بمسدس من العيار الثقيل، مسدس ابنه بالذات، يمتُّد إلى صدغه ويفجِّر رأسه بطلقة واحدة، لأنَّه «جاسوس».

أعرف الشاب الذي اغتاله، فقد كان يأتي إلى بيتنا في «بئرزيت»، ونسهر معاً. و لم يدرك أنه قتل، أيضاً «بقعة في ذاكرة طفل» كنته في ذات يوم.هل أسجد أمام القتيل، وأقبِّل القاتل، كالأب زوسيما في رواية «الأخوة كارامازوف»، أم أواصل العودة، سرّاً، إلى جبال طفولتي المقمرة، وأتجنَّب بقعاً كاملة كنت فيها «راعياً»، وطفلاً، ذات يوم ؟

صادر الإسرائيليون طفولتي، على أيَّة حال : الجبال المحيطة بِـ«عين قتيلية». وفوق الجبل الذي كنت أسبح في بركته، وعلي الراعي يقف تحت خروبته، بنوا مستعمرة مضاءة بمصابيح صفراء، وكاشفة، ومحاطة بأسلاك شائكة.الجبل، يا سارية، الجبل! وكأنَّ الذاكرة تهب عليّ، بدل أن أعود إليها. وصرت أتجنَّب هذه النواحي. و لم يبق لي غير «الدير الجوَّاني».

في مستشفى رام الله، وأنا أرقب عربات عليها مخدَّرون لم يفيقوا بعد، أو لن يفيقوا أبداً، وأنا تائه أبحث عن دكتور أمراض الدم، وذهني مثل رأس مليء بغيوم بيضاء من الأدوية، عانقني شخص غريب. «أتذكرني؟». «متأسِّف، لا!». «أتذكر عين قتيلية؟». «نعم.» «أتذكَّر صبياً صغيراً مثلك كان يحرس البساتين، ويسبح معك، وعلي الراعي يعزف الناي؟ أنا هو، ابن صاحب البساتين». «والبساتين؟» «أصبح المستعمرون ينزلون إليها

Twitter: @ketab_n

من رأس الجبل ويطلقون النار علينا. وشقُّوا طريقاً ترابياً من المستعمرة إلى الواد. هربنا، و لم نعد. والبساتين صارت ولائم للخراب !».

الهدم نملة.هذا أكيد.

مثلما قلت، كان أبي قد زرع جنائن بيتنا باللوز، في سنة (1948)، سنة زواجه. كان ظهري يتلّوى من الوجع كأفعى، بين ظلال اللوز المقمرة، وصرت أنسى، يا إلهي كم صرت أنسى، بسبب العلاج الكيماوي. وفي ليلة ما لاحظت بأنَّ اللوز بدأ ينوِّر، في طرف فرع صغير للوزة قرب البئر. وبدا النَّوار فراشات بيضاء، توالدت من ضوء القمر – في معتقدات العرب قبل الإسلام أن أي أنثى تتعرَّض عارية لضوء القمر تحبل منه، وبالتالي، كن يطفن عاريات حول الكعبة في موسم الحجِّ، وأياديهنَّ على عورتهنَّ، وينشدنَ :

اليوم يبدو بعضه أو كلّه

وما بدا منه فلا أحلّه!

وكلُّ لوزة، عندي، أُنثى عارية في موسم حج وثنيّ –. حدَّقت في هذه الفراشات، مقتنعاً لسبب غامض، أنَّها ولدت كي تقول لي سرّاً قديماً، وثنياً، ربمَّا، من أسراري الأولى.

مرَّة قالت لي أمِّي : إن لم تستطع كتمان سرٍّ ما، أحفر حفرة في الأرض وقله لها، ثُّم أهل عليه التراب، ادفنه فيها. وسوف يعود إليك حين يأتي الربيع : كلُّ نرجسة أو عشبة تبزغ من تربة تلك الحفرة سترجع السرَّ إلى

Twitter: @ketab_n

سطح الأرض، ولن يقدر على سماعه إلّا أنت!.وقفت في وسط الجنائن ، وحاولت أن أتذكّر أيَّ سرٍّ دفنته، وفي أيَّة حفرة، وأيَّة نبتة ستعيده إليّ.

هناك لوزة يابسة ليست أكثر من جذع داكن، يتفرّع إلى شعبتين ذاهبتين في الفضاء المقمر الواسع.هيئة الجذع هذه كانت توقظ فيَّ شعوراً غامضاً، أو، ربمّا، حدساً بسرٍّ قديم. عادة ما كانت ترافقني قطّة لا تقلُّ غرابة عن الجذع : مرقّطة ببقع بيضاء وسوداء، وكأنَّ لونها صدى لهيئة الجذع، أي يتفرّع إلى «لونين». وغرابتها تكمن في طريقة مشيها : تمشي بين قدميَّ حتى أتعثرَّ بها، أحياناً، وأدوس على ذنبها فتقفز عالياً، وتموء بحدّة. ولكن إن حاولت لمس فروتها هربت، ولست أدري في أيِّ روح من أرواحها السبع، فالقطّة في حكايات أهلي بسبع أرواح، تخفي غريزة البراري التي لا تثق بالناس. تهرب متراً أو مترين أمامي، ثّم تسلتقي على بطنها، وتتقلّب، وتحدّق فيّ. أومن أنَّها تريد أن تقول لي شيئاً ما، بالحركات، بدل اللفظ، والمواء، بدل اللغات السائدة. وفي ذات ليلة قفزتْ عالياً، وتسلّقتْ ذلك الجذع اليابس، الأشبه بلوحة تجريدية بثلاثة أبعاد، ووقفتْ على رأس شعبته اليمنى، ونظرت نحوي، تحت، ثّم نحو القمر. وتجمدتْ تماماً، وكأنَّها صارت تمثالاً.

أشحت ببصري عنها مفكّراً في ما الذي تريد قوله، وعندها لاحظت بأنَّ اللوز بدأ ينوِّر. لمست النوار، وشممته، وشعرت بأنَّني أنا، أيضاً، سأنوِّر، في يوم ما.

من عادات أمّي أن تخرج نحوي بين ظلال اللوز، وتسأل : «كيف

Twitter: @ketab_n

صحتك ؟»، فهي مقتنعة بأنّني أخفي عنها مرضي. وليلتها سألتني: «كيف صحتك؟». قلت: لها إنَّ اللوز بدأ ينوِّر!. وكان ذهولي شاملاً حين أشارت إلى تلك اللوزة قرب البئر وقالت: «هذه أوَّل ما ينوِّر.» «لماذا؟». «زرع أبوك هذه الجنائن باللوز في سنة زواجنا. وكنت أشعر بالغربة في بيتي الجديد، فذهبت إلى «الدير الجوَّاني»، وجئت من هناك ببذرة لوز واحدة، وزرعتها بيديّ هنا، وهذه أوّل ما ينوِّر، بذرتها من «الدير الجوَّاني!». يبدو بأنَّ ذاكرة قدورة، أي ذاكرة أمِّي القديمة، هي أول ما ينوِّر في ذاكرتها الجديدة. وبدون الذاكرة الإنسان بقايا إنسان.

وأتى الصباح، وكان مشمساً، وكسولاً، وفيه لسعة برد. أحبُّ أوقات دخول الشتاء في الربيع عندنا. جلست منهكاً، بجسم طال تهدُّمه، في كرسي بلاستيكي أزرق قرب البئر. حولي عشب جديد، وطنين نحل، وحشرات، ودبيب نمل، وبصل أخضر زرعته أمِّي في حوض بدائي. يا إلهي، نسيت بأنَّ في الدنيا طنين نحل، ودبيب نمل، وعشباً، وبصلاً أخضر وشمساً دافئة. والانتباه إلى ما سبق ونسيته، أو حتى خنته، هو الورقة الأولى في إرادة الحياة التي بدأت تستعدُّ لكي تولد فيّ.

مرَّة قرأت قصَّة عن أُختين تسكنان في شقَّة في بناية قديمة في إحدى المدن، وفوقهما يسكن رسَّام عجوز. وكلَّما التقى إحداهما في سلَّم الدرج ابتسم وقال : «يوماً ما سأرسم رائعتي. وأبيعها، وأطوف بكما العالم!». شابَ وهو يكرِّر الوعد نفسه، وتعوَّدت الأختان عليه، تعوَّدتا عليه إلى حدِّ نسيان وجوده. هناك من يتعوَّد على الأشياء إلى حدِّ نسيان وجودها!

Twitter: @ketab_n

ومرضت واحدة منهما. كانت تستلقي في سريرها قرب شباك يطلُّ على جنائن من الشجر العاري. والدنيا ثلج، ورياح. وعن شجرة تحت الشباك تسقط الأوراق ، واحدة تلو الأخرى. وكانت المريضة مقتنعة بأنَّها ستموت عندما تسقط آخر ورقة عن هذه الشجرة. وكانت تذبل، بالتدريج، مع الورق، حتى بقيت «الورقة الأخيرة». مرَّ يوم أو يومان، والورقة في مكانها، رغم الريح والليل، والثلوج. وبدأت الأُخت تستردُّ إرادتها في الحياة، حتى شفيت. بعدها نزلت كي ترى تلك الورقة، وتسلَّقت الشجرة، فوجدتها مرسومة رسماً على أحد الفروع.

كان الرسَّام العجوز يشعل مصباحه كلَّ ليلة، بعد أن تنام، ويتسلَّق الشجرة، ويرسم ورقة لا تسقط أبداً. رجعت الأُخت إلى الشقَّة، التقت به في سلَّم الدرج، وقبل أن يقول شيئاً، قالت له : «لقد رسمت الآن رائعتك».

وأمَّا أنا فكنت أشعر بأنَّ كلَّ ورقة في الجنائن، كلَّ نوارة «بسوم» صفراء، وكلَّ نملة، ونحلة، وحشرة، في صباح دافئ، ليس إلاَّ «ورقتي الأولى»، و«رائعة الجنائن». فمصيري يولد ، والأرض ترسمه.

نعم، نعم. أعرف أنَّ طريقتي في رؤية «الدير الجوَّاني»، أو جنائن اللوز، تشبه «خريفية». فـ «الدير الجوَّاني» زيتونة مباركة لا هي شرقية ولا غربية ويكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، وأنا، والغريريات، والحجل، والغزلان، والأفعى التي تزغرد، وقدورة، وذاكرة أمِّي ، قطرات من زيتها! هذا يُدعى: «مدّ الزيتون في الزيت». أحبُّ هذا التعبير: «مدّ الزيتون في الزيت».سمعته، أوَّل مرَّة، في الانتفاضة الأولى، في رام الله،

Twitter: @ketab_n

في شارع خال ، بعد انتهاء «جنازة» طفل استشهد .لا أحد في الشارع، وكنت عائداً إلى البيت، فرأيت عجوزاً تلبس ثوباً فلاحياً مطَّرزاً، يشبه لوحة مرسومة بالخيوط والإبر، وفيها كلُّ لون ممكن من ألوان الفصول الأربعة، وكأنَّه، أي سطح الثوب، «ورقة لا تسقط أبداً». ولدى الفلاحات كبرياء، ووقار، ولهذا مدَّت العجوز يدها إليَّ لأنَّها معدمة، ولكن، بدل أن تشحذ، بدأت تغنِّي :

« يخليك الله حجر رخام

لا ينزاح ولا ينقام

لا برغبة الحسَّاد ولا بنيّة الحكام

يخليك الله حجر البيت

و يمدّ سنين طويلة في عمرك ،

مدّ الزيتون في الزيت».

وإذا كان الزيتون يمتدُّ في زيته، فإنّ الجبل يمتدُّ في زيتونه. نعم، نعم، أعرف أنَّ رؤياي نفسها، رؤياي هذه ، «خريفية» أخرى من «خراريف» هذا الجبل. لم أعرف قدورة أبداً، و لم أره، و لم أسمع ربابته، فهو، عندي، «خريفية» من خراريف «الدير الجوَّاني». وأنا المفتون به لست إلّا «خريفية» أخرى عن «خريفيته»، رواية عن رواية أخرى، والراوي الحقيقي هو الدير، أي «هذا الجبل»، لا أنا ولا أمِّي، ولا قدورة، ولا الربابة.

أدمنت العودة إلى «الدير الجوَّاني» كي أسأل جبله عن بداياتي فيه. ولكن

Twitter: @ketab_n

من الأدق القول: إنَّني أنا نفسي لست أكثر من أسئلة هذا «الجبل» عن نهاياته الممتدَّة في نباتاته، وحجله، وغريرياته، وغزلانه، وأفاعيه، وناسه. نعم، نعم، أعرف أنَّ طريقة تفكيري في كلِّ شيء هي «خريفية» جبلية، من بقايا بداياتي في قدورة حتى بقايا نهاياتي في ظلال اللوز المقمرة. حتى عندما قرأت قصيدة محمود درويش، وأنا طفل :

« على الأنقاضِ وردتُنا ، ووجهانا على الرمل
إذا مرَّتْ رياحُ الصيف أشرعنا المناديلا
على مهل ، على مهل ...»

تخيَّلت أنَّني ملقى على وجهي، مع وردتي، فوق خرائب «الدير الجوَّاني» هذا، في عزِّ الظهيرة. وستمتدُّ خريفيتي في «زيتي»، أعني، مثلاً، في ابني الصغير، آثر.

لم أدر، قبل ولادته، ماذا أُسمِّيه. وفي حلم ما، رأيت أفقاً فيه شفق بسبع طبقات، خلف جبال من الأشواك، جبال الدير نفسها، ولكنَّها كانت مموَّهة في الحلم ، ففي الأحلام تصير الأمكنة أقنعة للروح، وسمعت صوتاً رخيماً وعميقاً يكرِّر اسم : آثر، آثر، آثر!

وهذا الاسم فعل، نعم، فعل، والفعل مهمٌّ في الحياة . جاء من المصدر نفسه الذي جاءت منه «آثار» و«إيثار». سميَّته آثر، و لم أدر أنَّني سأعود به نحو «آثاري»، وما آثرت.هذا الصوت في حلمي،هو صوت «الدير الجوَّاني»، أو، ربمَّا، دعوته، وفيه موسيقى خفية، ربمَّا أنَّها صدى لربابة

Twitter: @ketab_n

«قدورة» نفسه، من يدري.

كان لديَّ شعور بأننّا، أنا وآثر، نعرف بعضنا، في حياة سابقة. وتخيَّلت بأنَّ روح آثر، وروحي، كانا يعرفان بعضهما منذ الأزمنة الكنعانية، وكانا هناك يقيمان بين الرعاة في «أرض الغزالة والأرجوان»، ثمّ هاما في الزمن، حتى حلَّ أحدهما في جسمي، وأمَّا الروح الآخر، روحه، فقد ظلَّ يسكن في المغائر والآفاق، ويراقبني ، حتى حان موعد تجسده هو الآخر، فهتف بي من الشفق أن سمِّه : آثر.

ولد في شتاء قارص، في مستشفى الهلال الأحمر في رام الله، ورأيت هناك، لأوَّل مرَّة في حياتي، عملية الولادة : الطلق، آلام المخاض، وحين يتسع الرحم رويداً رويداً ليخرج رأس كائن مرتبك ومربك آخر، وشعرت بأنَّني أشهد ولادتي أنا، أيضاً، ولادة كائن سيسأل «الدير الجوَّاني»، في ذات يوم، من أين أتيت؟ ولماذا؟ وإلى أين أذهب؟ والإجابة عند «الهلال» في الجبل! قلت له، لآثر، يومها : «أهلاً بك في أوَّل يوم لك على سطح الكرة الأرضية».

كنَّا نسكن، أيامها، أنا وهو وزوجتي بترا، في بيت في سفح جبل في بئرزيت، يطلُّ عليه حرش صنوبر وسرو ولوز، أنواع الأشجار نفسها التي زرعها أبي حولَ بيتنا سنة (1948) . وسيكبر آثر هنا، قرب ظلال ذاكرتي. وأنا وأُمِّه زيتونتان هو زيتهما الآتي، «خريفية» عنهما.

فوق الحرش كانت تدويّ طائرات هليوكوبتر إسرائيلية، منذ أول يوم له

Twitter: @ketab_n

على «سطح الكرة الأرضية». وصار يسمع الدويّ، ويتابع الصوت، ليلاً، بحركة رأسه، تحت إضاءة شمعة خفيفة، وكأنَّه يتابع «قدره»، أو كأنَّه زهرة عباد شمس تتابع يوم قيامة. وقلت بأنَّه سيمشي ليس في طريق اللاعودة، ولا في طريق الوضوح، بل في طريق الغموض، مثلي.

وأوَّل لفظة لفظها، حين تكلَّم، كانت «طائرة». وأوَّل ذاكرتي، أيضاً، كان ترحيل أهلي بالطائرة من بيروت، كـ «رعايا أجانب». و لم أدر ما معنى هذه «المفارقات» التي تشتبك فيها حياته مع حياتي. كأنَّه أنا، أو كأنَّني هو. حدث ، أيامها، قبل سنة تقريباً، أن ذهبنا به، أنا وأُمِّه، بترا، إلى هضبة الجولان، وزرنا مقاماً مقدَّساً عند الدروز. سألت شيخاً درزياً هناك عن معنى كون «طائرة» أوَّل كلمة لفظها على الأرض. قال لي : عندما يلفظ الطفل أوَّل كلمة لـه، نقول، نحن الدروز، عنه : «لقد نطق». فعبر دورة تناسخ الأرواح، تحلُّ في المولود الجديد روح قديمة ما، وتنطق عبره أوَّل كلماتها، ربَّما أول ماضيها، أو أوَّل مستقبلها.

ليس عبثاً أنَّ أسئلة آثر كانت أكبر منه، وأغرب من أن يسألها طفل لم يبلغ الواحدة والنصف بعد. فهي أسئلة «الروح التي نطقت عبره»، روح هذه الجبال.

مرَّة سألني : «حسين، من كبّ التراب على الجبل؟» كنت أحمله وأطلُّ به على الحرش، و لم أدرِ بماذا أجيبه، فقلت: «الأرنب، من غير الأرنب يكب التراب على الجبل؟». ومرة أتاني بقلم حبر أحمر وسأل : «حسين هل يكتب هذا القلم شعراً؟» قلت «نعم». قال : «ما لون الشعر؟»، «القلم

Twitter: @ketab_n

الأحمر يكتب شعراً أحمر، والقلم الأخضر يكتب شعراً أخضر!». ومرَّة رأى في الحرش بيت نمل، فأخذ يرقص، ويدور حول نفسه، ويغني، ثم قال لي: «حسين، هنا بيت نمل، أرقص، أرقص!»، ورقصت. كنت وكأنني أتعلَّم الانتباه إلى التفاصيل الصغيرة (فالله في التفاصيل)، من هذه «الروح الكبرى» التي تنطق فيه.

وكان من المؤكَّد أننا جميعاً، أنا وآثر وبترا، سنرجع إلى «الدير الجَّواني»، يوماً ما، لا لكي «تكتمل»، بل لكي «تستمر»، «خريفية» الجبل هذه. وعدنا، فعلاً. وزرنا تلك المغارة ذات الباب المستطيل، وقلنا لآثر إنَّها «مغارة علاء الدين، صاحب الفانوس السحري»، فدخل إليها وأخذ يلعب، ويقول بأنَّ علاء الدين تأخرَّ في الرجوع إلى مغارته اليوم، وهناك طغى عليّ شعور بأننا، نحن الثلاثة، ولدنا «خارج الزمن».

مرَّة قرَّر الفراعنة القدماء تغيير سنتهم القمرية القديمة من (365) يوماً إلى (360) يوماً، فقط. و لم تفهم العامة كيف طارت خمسة أيام من السنة، فقالت بأنَّ الإلهة القمرية، إيزيس، خسرتها في لعبة دومينو مع أحد الآلهة العظام. وكلُّ من يولد في هذه الأيام الخمسة يولد «خارج الزمن»، وإلى حدّ ما هذا يعني الولادة في «الزمن الضائع»، أو «الزائد عن الحاجة»، وهذا يعني، أيضاً، الولادة في زمن أكثر قدماً، وأصالة، ولكن الذاكرة نسيته أو تتناساه ، وهذا يعني ، ثانياً، الولادة خارج «الزمن المستدير»، الدائري تماماً، المتفق عليه من قبل الكلِّ ، والولادة خارجه تعني أنّ المولود ليس جزءاً من «مساحة الدائرة»، ولا نقطة على محيطها، إنَّه، ببساطة،

Twitter: @ketab_n

«خارج الزمن». هل هذه «خريفية» أخرى؟ نعم، نعم، نعم!
كنّا ثلاثتنا في المغارة لمّا بدأت أتذكّر أصعب أوقاتي. عندما، قبل الانتفاضة الحالية بمدّة، شعرت برائحة موت في الجو، ومات وجهي. لا أعتقد بأنّ أحداً سمع عن «موت الوجوه»، بعد. وجهي مات. قلت لبترا إنّ علينا، أنا وهي وآثر، أن نهاجر، إلى كندا، ربّما، قبل أنّ تنتشر رائحة الموت أكثر. الفرار! ولكن فلسطين قفص. وبدأت أعرق، في الليل، أستيقظ على ضوء مصباح أحمر خافت، وأنا أنضح عرقاً، حتى أنّ قميصي قابل لأن «أعصره»، وكأنّه كان منقوعاً في حوض ماء. وجع غريب في البطن والظهر، وإنهاك، وفقدان وزن، وشهية، وحكّة تحت الجلد، وانهرت. لقد مرض الجبل بالسرطان!.
وبدأت أرجع، سرّاً، إلى جبال الطفولة المقمرة، إلى هذا الجمال الذي سبق وخنته، رجعة غير محكمة. واكتشفت بأنّني ابن الحياة، لا الموت. وشيء في الجبل كان يقول لي، كلّما حدّقت في الزيتون والأودية المقمرة : حتى ولو بقيت لك سنتان للعيش، فإنّ سنتين هنا أعمق من قرنين «هناك». قاوم! هذه الأرض لك، قاوم! كنت واقفاً أمام الشّباك، مطلاً على الحرش، والصنوبر واللوز، وخطر ببالي أنّ بترا ، زوجتي، ستنهار إن انهرت : «قاوم، لا لأجلك، قاوم». وشعرت بأنّ الجبل يهتف بي: «قل لها، مهما حدث، إن زرتِني، سأكون بين اللوز! ستكون شمس، ويكون نوّار يتطاير في الهواء، وتكون جنائن، ويكون نحل وطريق نحل، وحتى يأتي ذلك الوقت، قاوم» .

Twitter: @ketab_n

قال لي دكتور أمراض الدم، في البدء، قد تكون مصاباً بالإيدز. يا إلهي! سننتهي كلنّا، أنا وبترا وآثر. ليس المهم أنا، مرضي وحدي لعبة بين الله وبيني، أمّا هما! كان آثر يركض نحوي ، ضاحكاً، ويميل برأسه نحو اليمين ونحو الشمال، ويضحك: «أوه، أوه، أوه!حسين، حسين، شوف!».وأحاول أن أتخيّل أنّه سيموت بعد سنة أو خمسة، بالإيدز. ويتوقّف خيالي. لم أقل لبترا شيئاً، بعد. وتخيّلت بأنّ من الأفضل أن أذهب إلى البحر وأنتحر غرقاً. ولكنّ البحر يعيد الجثث إلى الشاطئ. وسيعثرون عليّ. ليس من حقي أن أكون جباناً، ولا أن أهرب هكذا. كنت أُفكّر في بترا وآثر ، ليس فيّ. كنا في مقهى «كانباتا»، وخرجنا. وضعت يدي على كتفيها، وقلت : «إن كنت مصاباً بالأيدز، فأنت، أيضاً، مصابة!» ليس مهماً، المهم أن نموت معاً. «بترا عظيمة، امرأة عظيمة. وهل تحتمل الهزّة الثانية؟» ، «وآثر سيكون مصاباً». «آثر لا، آثر، لا، لا، انا غير مهمّة، أما آثر لا!».

كانت في مستشفى رام الله ممرضة بحجاب، ووجه ماورائي، كهنوتي، محايد ، وفيه صرامة، وسحبت الدم منّي للفحص. وجه لا ينسى أبداً. هاتان الشفتان الصارمتان ستنفتحان بعد أسبوع وتقولان لي قدري كلّه: «سلبي»، أو «إيجابي»، بكلمة سيحكم علينا كلُّنا بالإعدام، أو بالنجاة. فلنعدم، لكن لم أرد أن أسمع هذه الكلمة من هذه الممرضة بالذات. وجهها من علامات القيامة،هكذا بدا لي.على الحائط، أمام بنك الدم، لوحة عليها كتبت جملة : «السرطان يشفي من التدخين!» السرطان وردة، نعمة

Twitter: @ketab_n

إلهية!أمنيتي أن أكون مصاباً به الآن، لا بالأيدز.ولكن اللوحة تدلُّ على بلادة، على عدم حساسية نحو من هم مصابون بالسرطان. لغة «المعافين» ولغة «المرضى» لغتان بينهما حاجز.

ومرَّ أُسبوع يشبه نص رامبو :«فصل في الجحيم». رجعت إلى المختبر ، عبر بوابات زجاج، إلى ممرِّضة أُخرى بين يديها دستة من الأوراق. «حسين، أُريد نتيجة فحص دم ، إيدز». قلبت الأوراق وأنا في عالم آخر، ولمحت، بالإنجليزية ، تحت اسمي ، كلمة «نيغاتيف»، أي لست مصاباً. قلت لها: «نيغاتيف يعني لست مصاباً، فش أيدز». «نعم». «نيغاتيف يعني نيغاتيف، يعني لست مصاباً، صحيح؟« «صحيح».

«أي أن نتيجة الفحص نيغاتيف». زهقت روحها. ولكنَّني أكملت : «ونيغاتيف تعني لست مصاباً!». فضحكت وهزَّت رأسها.

كنت أتخيَّل بأنَّني سأرقص إن لم أكن مصاباً، أو أبكي. لكن لا هذا ولا ذاك ما حدث. وجدتني أميل برأسي ذات اليمين وذات الشمال، وأركض في ممرِّ المستشفى، وأهتف : «أوه، أوه، أوه. حسين، حسين، شوف!»، أي كنت أكرِّر كلمات نفسها آثر، لقد صرت آثر، و لم أعد أنا أنا. ورجعت طفلاً، فأوقفني دكتور أمراض الدم في الممر، وأنا على هذه الحالة، وكان محاطاً بمرضى آخرين، فقلت : «نيغاتيف، يعني لست مصاباً بالأيدز». قال: «تقرير المختبر وصل : عندك ليمفوما» (سرطان في الغدد الليمفاوية). ولكن لا أهمية لذلك، فآثر وبترا خارج اللعبة الآن، وأنا قادر على اللعب وحيداً مع القدر.

Twitter: @ketab_n

خرجت من المستشفى شارداً، لا بكاء ولا فرح، وفجأة وضعت رأسي على عرق صنوبرة في الشارع ، وانفجرت في بكاء مرٍّ، وقديم، كان جسمي متصلِّباً إلى حدِّ البلاهة، وذاب في نوبات من البكاء. لم أبك ولا مرّة في الجحيم نفسها، ولكن عندما خرجت منها بكيت! جاء دوري الآن لكي أشعر لا ببترا ولا بآثر، بل بنفسي، ونجاتهما.

خرجنا من المغارة. وفجأة مدَّ آثر يده الفارغة إليَّ، وقال : «حسين، خذ علاء الدين، ضعه في جيبك، فالدنيا برد». فوضعت علاء الدين في جيبي، وأمَّا هو فرفع بيده الأخرى فانوس علاء الدين السحري : ربَّما أنَّه كان يتخيَّل الفانوس من ذهب أخضر خالص يشعُّ في الليل كلؤلؤة في وسط حديقة ورد. ولمّا وصلنا البيت سألني: «حسين، هل علاء الدين في جيبك؟». «نعم». «هل يشعر بالدفء؟» ، «نعم، نعم».

بعد يومين، وكنت أنوي الذهاب إلى «الدير الجوَّاني»، وكنَّا انتقلنا جميعاً، أنا وبترا وآثر، إلى السكن في ريف رام الله، قال لي أخي، فادي : إنَّ أحد الفلاحين كان في «الدير الجوَّاني»، أمس، وكاد يموت. «كاد يموت؟». «نعم. التقى به هناك خمسة مستوطنين، مسلحين، فارتعب، ولكنَّهم كانوا مرحين، ومعهم «أراجيل»، كالعرب، وسألوه عن أجمل بقعة هنا لتدخين أراجيلهم». «وبعدها؟» . قال لهم : «هنا، هنا أجمل بقعة».

يا إلهي! فكَّرت في القصَّة. لم يكونوا مستعمرين فقط، كانوا من «فرق الاغتيال الخاصَّة»، المسمَّاة بـ «المستعربين». يلبسون كالعرب، ويدخنون الأراجيل كالعرب، ومهمَّتهم تصفية نشطاء الانتفاضة. ربَّما

Twitter: @ketab_n

لاحظوا «نشاطي»، في زيارة الدير كلَّ ليلة مقمرة، أو لاحظوا آثر وهو يحمل فانوس علاء الدين، أو بترا، وهي، أصلاً، لاجئة من سنة (1948)، ورأت في «الدير الجوَّاني» ما كانت تسمع عنه ولا تعرفه أبداً: الأرض، فزحفوا للتصفية!

جمعت شلَّة من أصدقائي ، صديقة عائدة من تونس، والشاعر كفاح فني وأنا، فأنا، أيضاً، من أصدقائي– ، وآثر، وبترا، وذهبنا إلى الدير. أشعلنا ناراً وقعدنا هناك. من مستعمرة صغيرة ، قرب مستعمرة «حلميش»، كانت تأتي موسيقى صاخبة بالعبرية، وعالية، وذات نمط غربي ممزوج بالشرقي، ويقاطعها دويّ طائرات حربية. قلت لنفسي : عمَّا قريب، في ليلة مقمرة وواسعة وهادئة قليلاً، سيأتي المستعربون هنا، ويقعدون فوق خرائب الدير، وفوق صمت ربابة قدورة، ويدخنون الأراجيل، وربَّما ستكون معهم ربابة، أيضاً، يعزفون عليها، ويضحكون. وسأمرُّ، ليلتها، بعيداً، بعيداً جداً، على الطرف الآخر من المرج المقمر، وأعطس عطساً خافتاً، كالغزلان، سرِّياً تماماً، ولن يتذكّر أحد غيري ربابة قدورة هنا، والدنيا قمر، ولا «سعوطة»، ولا ذلك الصوت الذي كان يبكي كطفل صغير، ولن تمرَّ الأفعى التي تزغرد.

من يدري، ربَّما سيسمع المستعربون صوت تلك «الغريريا» نفسها، والذي يشبه بكاء طفل صغير، وسيطاردون الصدى في جنائن الزيتون المقمرة، سيبدو الصوت وكأنَّه يأتي من الحقل الأوَّل ، وعندما يصلونه ، سيبدو وكأنَّه يأتي من الثاني، أو من اللامكان، وسيقولون، حتماً: هذه جبال بها

Twitter: @ketab_n

«شبه الجنون» ، أو مسكونة بأساطير أخرى غير أساطيرهم ، وحكايات أخرى، غير حكاياتهم، أو، بكلمات أبسط، كائنات من «الأغيار»، ليست من نوعهم.وربمَّا سأكون أنا هذه «الغريريا»، ولكن ليس آخر «غريريا»، في هذه الجبال، حتماً.

سألت أمِّي يومها، «هل تعرفين الغريريا؟». قالت : إنَّ حجمها كالقط ، تقريباً، ولكنَّها ليست مستطيلة مثله، بل شبه دائرية.هكذا سيكون شكلي، وسأسكن في أحلام هذا الجبل. وسيحلم بي ، حتماً، وسأحلمه. ولكن كيف سيكون حلم «الغريريا» بالجبل، وكيف سيحلمها الجبل؟ هذه أسئلة لا جواب عليها. ولكن لن يستطيع أحد، ولا حتى مستحضر أرواح ، أن يخرجني من حلم الجبل أو يخرجه من حلمي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

«بلد الحكايات»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حينما أمشي، ليلاً، ويكون القمر كاملاً، في خرائب «الدير الجوّاني»، أشعر إلى أيِّ مدى كان الدير مكاناً قصياً، في البراري، و لم يكن ليسكنه «إلاّ وحش أو إله»، بتعبير أرسطو، ولـه جلالة الخراب والقدم. وأراه في خيالي ينهض من خرائبه ويعود مضاء بسراج من الفخّار فيه فتيل مبتلٌّ بزيت الزيتون، وحوله ساحة مرصوفة بحجارة ملساء، مكعبة ، وصغيرة، تفيض بخطى رهبان وتراتيل ، وضوء نجوم خافت، أيام كانت النجوم إشارة إلى القدر ، والمصائر. وحوله ، خارج السور، ثعالب، وضباع، وجنٌّ ، وكثرة من كائنات لا ترى . مكان «برّاني» تماماً، ومع ذلك سمّاه أهلي القدماء : «الجوّاني»، وكأنّه كان أقرب إليهم من «حبل الوريد». فاسمه نفسه

Twitter: @ketab_n

ساحر، لمن يتأمَّله، و يشبه معبداً يضيء على رأس جبل في أغوار روحهم هم. برَّانية الموقع، وجوَّانية الدير ، في اسم واحد. سحر!

وقد يقول بعض حكماء البوذية لمن يفكِّر مثلي : «أنت لا ترى ديراً مقمراً ولا خرائب دير، بل يسيل ذهنك إلى خارجه، ثُّم يتجمَّد ويأخذ في نظرك هيئة دير مقمر وخرائب دير، فيرى ذهنك نفسه لا غير». فليكن! في أقصى روحي «دير جوَّاني» ما، وحكاية «قدورة» بابه.

وقدورة هذا كان «هنا»، «من قبل ما كان الشجر عالي»، و لم أزل أسمعه يعزف على ربابته على سطح الدير، وكأنَّه لم يتنازل حتى بعد موته عن قطع الطرق : فيوقف ذاكرتي عنده، بوتر وأغنية ، كي تكون بدايتي قاطع طرق لا غير.

كان أشقر، أزرق العينين، ويسكن في الدير مع «كايد»، أكثر إخوته سطوة، وذراعه الأيمن. تزوَّجا من المرأة نفسها، «سعوطة»، و لم يعش لهما ولا ولد واحد.

في البدء تزوَّج كايد من «سعوطة». وأنجبت لـه عدة أولاد ماتوا الواحد بعد الآخر. وشعرت «سعوطة» برائحة موت في رحمها، بخراب ما.ولَّما رزقها الله بولد يدعى نايف ، وبسبب من هذا الحسِّ بالخراب ، ربَّما، صارت تدور على الكهوف السحيقة، والقريبة من الدير، حيث تسكن هياكل عظمية مسجَّاة بأمان في حوض ماء من أيام الرومان ، أو حتى الكنعانيين، وتنعف العظام المنخورة إلى الخارج، وتزيح رائحة الموت من المنطقة كلِّها. نعفت العظام ، وكنست التراب، وعادت إلى الدير، منهكة، فألبست «نايف» خير وأجمل ملابسه، وعطَّرته، وغفت قربه على الحصير.

Twitter: @ketab_n

وعندها حلمت حلماً غريباً فعلاً.

حلمت بالدير مضاء بالسراج، وفارغاً، وبابه مفتوح، فدخلت امرأة تلبس السواد، صامتة، ووقفت في الزاوية الأبعد للدير، بين الظلال، وكأنَّها حارسة على روح المكان، أو كاهنة قديمة ، وحدَّقت في «سعوطة» ، زمناً، ثُم قالت لها:«أخرجت عظام موتانا، واسترحت الآن ؟ سأخرج نايف من ديره ..».

واستيقظت «سعوطة» من حلمها فزعة، وفركت عينيها، و لم تر أحداً، فاستعاذت بالله، ثمَّ نظرت إلى نايف، وهزَّته، فلم يتحرَّك، فيه سكون الموتى، وجثته هامدة .. قالت أمي بأنَّ «سعوطة» حلفت بالله ليلتها أن لا تزيح عظام الماضي أبداً، أبداً، ما دامت حيَّة. ولعلَّ هذا ما جعلها تصبح، في أواخر عمرها، «داية» القرية، فاختارت توليد المستقبل بدل إزاحة عظام الماضي.

كانت من عادات نساء قبيلتنا، أيامها، أن يحتفلن بـ «خميس الأموات»، خميس وثني الجذور، سحيق القدم، من «أعياد الربيع»، والبعث. كن يسلقن بيضاً كثيراً في ماء تغلي فيه قشور البصل الحمراء، فيصبح البيض أحمر وبنياً، ويتزخرف بألوان ترابية. ثمَّ يخبزن خبزاً «مخمراً»، أصفر كالليمون، من حبوب الـ «عصفر» المنشورة فيه، ثمَّ يحملن ما خبزن وسلقن على صوان من قشٍّ مصبوغ هو الآخر، ومنسوج على هيئة زخرفات هندسية مجرَّدة وملَّونة، من إرث هذه المنطقة من العالم، ثمَّ ينزلن بكلِّ قيامة الألوان هذه إلى المقبرة ، في صباح خميس ربيعي

Twitter: @ketab_n

دافئ، ويقعدن فوق قبور موتانا وموتاهنّ، بين شجيرات «البصلون» ذات الزهور الزرقاء الكبيرة والناعمة، حين تكون المقبرة منقطة بالأزرق منها، ويوزّعن البيض والحلوى والخبز على الأطفال، ويأملن أن ينبعث موتاهنّ كما ينبعث العشب حين يشق قشرة التراب، أو كما تولد فراخ تشقّ قشور البيض، أو كما تنبعث الألوان نفسها، وتلك طقوس نسائية لا رجل يشاركهنّ فيها.

ولكن «سعوطة» لم تحمل صينيتها إلى المقبرة العادية، بل ذهبت بالحلوى والخبز والبيض إلى كهف يدعى «المربّية»، كانوا دفنوا نايف فيه ، أو «فيها». قعدت في الرطوبة، في هذه الرائحة الخاصّة التي تميّز كهفاً يشبه حبّة «فستق» مغلقة على ما في جوفها ، ولا تنفتح إلاّ ليدخلها طفل مات. وبكت، وكأنّ الدموع مطر تستغيث به كي يبعث نايف حياً، مع النرجس، والأقحوان، وخضرة العشب، والشمس. هبط الليل وهي قاعدة أمام صينيتها. فجأة سمعت، من أغوار «المربية» صوت انهيارات غامضة، وكأنّ جهة من الجبل تنهار، ثّم سمعت صهيل خيل أقرب إلى صهيل الجنّ منه إلى الخيل. لم تستطع الوقوف من الرعب، وأخذت ترجف وتزحف إلى الخلف، على مؤخّرتها، تاركة صينيتها هناك، حتى وصلت إلى الباب، ونجت بجلدها.

لّما بلغ قدورة خبر نايف وحلم سعوطة، لم يلفظ لفظة واحدة. ومرّ زمن من الصمت. كان أقسى من حجر، وأرقّ من وتر ربابته، وبالتالي لم يقل ما في قلبه إلاّ لربابته. كان يدخّن أرجيلته على سطح الدير، ويتأمّل الأودية

Twitter: @ketab_n

المقمرة العميقة حوله، ومعه تسهر أمّي، وسعوطة، وأخت له. فأخذ ربابته وبدأ يغنّي عن ليال بيضاء لم تأت أبداً لـ «تمحو سواد الليالي»، وعن وعود بنجوم لم تمرق إلّا «كالخيال إلى زوال»، ثمّ غنّى عن «غريبة عن الجبل»، أي لا تدرك منطق المكان الذي اغتربت فيه، وعنه. و«سعوطة» من فرع آخر من قبيلتنا، وقرية أخرى، أي «غريبة»، ليست من «هنا». والتقطت تلميحه عنها، ولا أدري بماذا شعرت عندها.

لكن أمّي كانت «غريبة»، أيضاً، وتعرف مشاعر الغريبات جيداً، فقد تربّت يتيمة، وامتهنت الرقص والغناء زمناً في مواسم فلاحي المنطقة، فسألتها عن «مشاعر الغريبات»، الشبيهات بـ «سعوطة»، فغنّت :

«يا راكبين الخيل زوروا لي حبيبتكم

وان قصّرت الخيول،

شدّوا لي همتكم!»

وتخيّلتُ «سعوطة»، وهي قاعدة على سطح الدير، وقدورة يغنّي ، تنظر إلى أقاصي الجبال المقمرة، في الشمال، بعيداً، وتتخيّل أهلها يركبون سبع خيول بيضاء، في مسالك الجبال الموحشة، في الطريق إلى زيارة «الغريبة»، وربّما لم يأت منهم أحد، ولا حتى في العيد، وشعرت بحسرتها، وأنّها «غريبة عن الجبل».

«لا تطلعي على السلالم

هبّ الهوا غربي

Twitter: @ketab_n

ورغم الغربة لم تنكسر روح «سعوطة» أو روح أمِّي في «الدير الجوَّاني»، عندما كان قدورة حياً، حتى أن أُخته مسّتها النشوة، ذات صباح، فانفلتت ترقص وحدها في الجنائن، وتغنِّي، وتضحك بين الزيتون، حتى حسبوا أنها جنَّت، ولما أوقفوها قالت : «كيف لا ترقص من ترى حولها رجالا كهؤلاء ؟»، أي قدورة وأخوته. وواصلت الرقص.

مات كايد هذا فجأة، قدراً من الله. فتزوَّج قدورة من زوجته، «سعوطة»، وتبنَّى ابنته، «نايفة» : محض طفلة صغيرة لا تعرف شيئاً عن الدنيا بعد، وتزوَّجت طفلاً آخر أصغر منها، من قرية قرب نابلس– منطقة نائية في البراري، بمعايير تلك الأزمنة. صارت تخلع عن رأس «عريسها» طاقيته البيضاء، وتلعب بها معه في التراب.

كانت تلملم حطباً في الجبال، يوماً ما، حين عضّتها حماتها في كتفها، لأنَّها تفوقت عليها في جمع الحطب. لم تحتمل الإهانة، فصبرت حتى أول الصبح، ثُم تسلَّلت من غرفتها، سرّاً، وفتحت بوابة البيت، عائدة إلى «الدير الجوَّاني»، مشياً على الأقدام، في رحلة نحو أصلها وبداياتها في ذلك الجبل. كانت الطريق موحشة، بغيلان وضباع وجنٍّ، وكائنات أخرى، لّما هبط الليل. فرأت قناديل في بيت أحد الفلاحين في الطريق، فدقَّت بابه، ونامت هناك.

لّما استيقظ أهل زوجها و لم يجدوها بعثوا بفارس منهم إلى «الدير الجوَّاني»

Twitter: @ketab_n

كي «يعيدها إليهم». فوصل إلى هناك قبلها. ركب قدورة فرسه، وحمل بندقيته، وخرج باحثاً عنها في الجبال، فوجدها في بطن «شِعب» ما، وأردفها خلفه على ظهر فرسه، وأرجعها إلى الدير. ثُم قال للفارس : «لن تعود إلاَّ إن دفعتم ثمن ضياعها في الجبال». «وما هو؟». «أخذتم منها عروة من ذهب في طرف سلسال ذهبي، أعيدوا لها عروتها». كانت «العرى الذهبية» نادرة، وطافوا طويلاً، حتى وجدوا عروة عثمانية عند عجوز ما في إحدى القرى، فاشتروها، وبعثوها إلى الدير. قلّب قدورة العروة بين يديه، وقال : «لن تعود إلا إن دفعتم مهرها كاملاً». «لكننا دفعناه». قال: «ادفعوه مرة ثانية، هذا ثمن كرامتها».

مرَّت سنة حتى جمعوا مهرها الجديد ، وأتوا به إلى الدير. فقال قدورة : «جاءت إلى الدير هاربة، ولن تخرج منه إلا عروساً جديدة. زفُّوها زفافاً ثانياً». وزفُّوها. ولكنَّه أوقف زفَّتها في باب الدير وقال : «قبل أن تأخذوها، لديّ شرط أخير: إن عادت إلى الدير مهانة مرة أخرى، ستدفعون مهر كرامة قدورة نفسه، ومهرها غال ولن تقدروا عليه».

لا عجب أن ترقص أخته في الجنائن حتى حسبوا أنها جنَّت «لأنَّ لها إخوة كهؤلاء»!

أما لَم كنت أنا أتذكر حكايات الجبل هذه، وأنا أمشي، كعادتي، بين جنائن اللوز المقمر حول بيتنا، وبالكاد أتنفَّس، بسبب من ورم جديد في الرئة، وأطلُّ على شبح الموت، فسؤال آخر. ربمَّا كنت أتنفَّس بالحكايات هواء أمكنة وأزمنة أخرى، لأشعر بفضاء مقمر آخر في داخلي، وأعود

Twitter: @ketab_n

إلى «دير جوّاني» ما، في روحي، يمنحني قوّة البدايات كي أواجه «قسوة النهايات». فالخيال طاقة.

ولكنّ الورم اشتدّ، و لم أعد قادراً على التنفُّس، وضاق صدري بما فيه، فقال لي دكتور أمراض الدم في مستشفى رام الله، في الصباح : «السرطان قد يكون رجع». كان متوتراً لأن ابني، آثر، كان معي. « لم تحضرون أولادكم إلى المستشفيات ؟ هنا جراثيم وأمراض! أعده إلى البيت، وارجع، حالتك طارئة». لا شيء ينتهي تماماً في هذه الأرض المقدَّسة، وكلُّ شيء يرجع، أو كما قال المتنبي :

يظل يجيء الذي قد مضى

لأنّ الذي سوفَ يأتي ذهبْ!

قضيت سبعة عشر يوماً في مستشفى رام الله، في غرفة تفتح على دهليز مضاء بالنيون، دائماً، و لم يدخله أي ضوء طبيعي منذ عقود، ولن يدخله أبداً، وكأنّ من «أسس» الهندسة المعمارية للمستشفيات والسجون عندنا فرض «عزلة ضوئية» على المرضى. فالمستشفى والسجن طرفا تشبيه واحد.

عندما جاءت السلطة الفلسطينية، وتسلَّمت سجن رام الله من قوات الاحتلال الإسرائيلي، مثلاً، فتحته للزوّار العاديين، والسجناء السابقين فيه، فرأيت «فنّ التصميم المعماري» عارياً هناك : زنزانة لم أصلها، حتى في الظهيرة، إلاّ عبر نفق مظلم يقود إلى كهف، فأضأت عيدان كبريت كي

Twitter: @ketab_n

أرى في العتمة السائدة. فوجدتني على رأس سلّم درج حجري ينزل إلى الأسفل، على اليسار «درابزين» من الحديد، وعلى اليمين جدار رطب يبدو وكأنّه نحت بعناية خاصة، وبعد آخر درجة بركة ماء مستطيلة، وعلى يسار الدرابزين مباشرة، بركة أخرى، وفي البركتين ماء يبلغ علوه متراً على الأقل، ماء آسن ضارب إلى الخضرة، على سطحه قشٌّ وحشرات ووعد بعذاب سرمدي. هنا، في الماء، كانوا «ينقعون» السجين في «عزلة انفرادية». قربي يقف «جميل أبو سعدا» – أستاذ بيولوجيا في جامعة بيرزيت –، وجهه تشوّه وهو يحدّق في الماء، ثم قال : «هنا قضيت ليالي كاملة، يا حسين، في هذا الماء نفسه! لم أستطع لا الجلوس ولا الوقوف!»

في آخر الليل في المستشفى، عندما تنام الممرضات، ويحلُّ صمت، أتكئ على السرير، تحت أزيز النيون، وجسمي كلُّه منتهك، مخرَّم من الإبر، وبقع سوداء وخضراء في ذراعيّ. وفي دمي، بدل الشهوات، ليترات أدوية تكفي لأعرف ما معنى «مطر الكيمياء». هذا هو التعبير الذي خطر ببالي بالضبط، حين قيل لي سأخضع للعلاج الكيماوي قبل سنتين: «مطر الكيمياء». تخيَّلت أنَّهم سيوقفونني في «حمَّام» مغلق، على مصطبة من الإسمنت المسلح – هذا الاختراع الروماني الرهيب، الإسمنت المسلَّح!– ومن فتحات في السقف تمطر محاليل كيماوية على جسمي كلِّه. ومنها محلول أحمر حمرة قانية، في كيس بلاستيكي يثير الغثيان، لاحقاً سيصبون منه ليترات في دمي.

لتلك الغرفة شباك عريض يطلُّ على قاعة إسمنتية مهجورة، لم تكتمل ،

Twitter: @ketab_n

مرميَّة فيها صناديق أدوية فارغة، «تبرعات» من «الأشقاء»، و«الأعداء»، و«الأخوة الأعداء»، لـ«شعب الانتفاضة»، وإبر قديمة، وأكياس دم مستعملة. ركام حولي، بدل جنائن اللوز. وانتبهت إلى قطَّة سوداء واقفة في وسط القاعة، تحت شبح الضوء، هزيلة، كتلة عظمية في الحقيقة، تعطس بعنف، وتهتزُّ من ذنبها حتى رأسها، وتحاول أن تستفرغ ما في باطنها، عبثاً. يبدو أنَّها ابتلعت أدوية، أو شظايا إبر، مع بقايا أكل المستشفى. وكان ينزل من فمها زبد أصفر، وشعرت بأنَّها مثلي تماماً: فأنا أرغب، أيضاً، أن أنزع الإبر من ظهر يدي، وأستفرغ كلَّ ما في باطني، وفي ذهني، وأحمل كتبي، وجلدي، وثيابي، وأغادر، إلى «الدير الجوَّاني»، وإلى جنائن اللوز. ذهني يشبه هذه القاعة، ويحتاج أمكنة واسعة ، مقمرة ، ومفتوحة على درب التبَّانات، على المعمار الإلهي نفسه. «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل»! لو خدَّروني، بدل هذا الصحو!

أفكِّر في ابني، آثر. بلغ الثالثة الآن. هل هو نائم، أم يلعب في جنائن اللوز، ويسأل أمَّه عني؟ أكاد أسمع ضحكاتهما هناك، حيث لا أصل، في جنائن لم تعد في متناول الأيدي، سأعود إلى الجنائن، سأعود، فجسمي ليس بالضبط أنا، مهما أمعنت في غيِّها الإبر! «وكأنَّني قد متُّ، قبل الآن، أعرف هذه الرؤيا..»

–ولكنه أتى في الصباح، في وقت الزيارة، مع بترا، زوجتي. لمحته يمشي أمامها في الممر، بين الزوار، ويضحك، ولمع في يده الصغيرة غصن لوز عليه حبَّات ناعمة خضراء. ركض إليَّ، فرحاً، وقال : «حسين، حسين، وينك؟

Twitter: @ketab_n

أنا والله كنت أبحث عنك!؟». وأعطاني الغصن. كنت وكأنني على شاطئ بحر، والدنيا ضباب، ولا أرى شيئاً، ولا أدري أين أنا بالضبط. ورأيته، قادماً على الرمل، من بين الضباب، وشعره مغسول بهدير الموج، ويعطيني «غصنا ذهبياً» يخرج منه جنّي صغير يدلُّني على الطريق. فشعرت كأنني في حلم بعثه جبل الآلهة إليَّ، حلم يشبه ردَّ مظفر النواب حين قالوا له لن يوصلك البحر إلى البصرة، قال : «البحر سيوصلني»، قالوا: لن يوصلك البحر إلى البصرة قال: «البحر سيوصلني، أو تأتي البصرة في الأحلام ... وتأخذني». والغصن الذهبي في يده يشبه البصرة في الأحلام أتت لتأخذني إلى «الخارج»، إلى مكان لم يعد نيله بالمستطاع، وليس في متناول الأيدي. وخطر ببالي قول محمود درويش:

«إذا مرَّت على وجهي، أنامل شعرك المبتلّ بالرملِ
سأنهي لعبتي أنهي

وأمضي نحو منزلنا القديم على خطى أهلي
وأهتف :
يا حجارة بيتنا صلّي».

ومضيت نحو منزلنا القديم ، ولكن في الضوء الخطأ، في مساء خماسيني تعيس. كم فوجئت بخضرة العشب وقد صارت هشيماً يابساً لا أمل فيه، وحتى حبات اللوز كانت قاسية، ومتسخة من الغبار، في أعالي

Twitter: @ketab_n

الشجر، وبيوت النمل بدت مهجورة، وفوضى حيث نظرت، في قلبي وفي خارجه.

«يا زمان

زي عشب ناشر عالحيطان!»

رجعت ليس لأنيِّ نجوت، بل لكي أسافر بعد يومين إلى مركز الأمل للأورام السرطانية في عمان. فوضى في قلبي وفي خارجه. لكن لا توجد فوضى، بل نظام آخر للأشياء، ربمَّا.

■

«هذا مساء قياموي» ، قلت لنفسي. كنت قاعداً تحت شبَّاك بيتنا العتيق، قبل السفر، عندما بدأ طفل أبله أعرفه، يعزف على الـ«هارمونيكا» لحناً بعيداً، مضطرباً، ضائعاً في الهواء، هناك، خلف جنائن اللوز. وبسبب من العزف، هذا العزف، ربمَّا، بدأ الغبار الأشبه بدخان أبيض تسفوه فوق الجبال والشجر ريح خماسينية – شرقية خانقة، يرتفع ويتجمَّع، فوق، ويتحوَّل إلى صفرة حادَّة ، تشبه «غبار الذهب المصحون»، ثمَّ بدأ، من الغرب، طفح أحمر غريب يشبه سيلاً من شفق قلق يزحف شرقاً، وفي جوانبه دوَّامات سوداء وخضراء وبنية، تتقلَّب وكأنَّ السماء نفسها ستغلي، ولا شمس هناك، لا شمس أبداً.

Twitter: @ketab_n

في زاوية منعزلة، غرباً، فوق الأودية، لاح القمر أزرق كالحاً ثم اختفى تماماً. فجأة، فوق القرية القديمة، بدأ يطفح ضوء بدري ساطع، إشراقي، يصعد من تحت، من الأودية، ربمّا، وينتشر وكأنَّ يداً خفيَّة تدهن الأفق به، لترسم إشراقة صوفية، فبرزت أكثر قبَّة الجامع الخضراء، كصدى آخر لقبة السماء الحمراء فوقها ، وشعرت بأنَّ شيئاً سيقع، ستقع السماء على الأرض، مثلاً. فيلم من أغرب ما يمكن من ألوان وخطوط.

أمَّا الضوء نفسه فصار غامقاً يشفُّ ويزيد ثقلاً على الجنائن، كظلٍّ إله وثني يمرق فوق. والريح انقلبت إلى غربية باردة كادت أن تقتلع الورد أمامي. غمرتني رائحة نعناع بري، وورد، ولكنني شعرت بأنَّ هذا العطر من نذر القيامة، «أم أنَّه العصف الذي تنحلُّ فيه الروح والرؤيا وتنحل البلاد»؟ حتى أُمِّي لاحظت غرابة الجو، فقلبت نظرها في أحواض النباتات التي زرعتها، وقالت : «كلُّ القطط اختفت اليوم، ولا قطة بقيت هنا». خلفها، فوق البئر العتيقة ، «سلك» غسيل عليه عصفور رمادي تكاد الريح تشلع أجنحته ، ولا يطير، بل يتشبَّث بمكانه.

حتى آثر، الذي بلغ الثالثة الآن، قعد قربي خائفاً، ثم قال: «حسين، انظر إلى البحر الذي فوق!» (اسم السماء عنده). لم أجبه، كنت مذهولاً تماماً، وأراقب، فأكمل : «حسين، أريد فستاناً!». قلت : «الفساتين للبنات، أنت ولد». قال: «طيب. أريد بأن أصير بنتاً!». شردت في رغبته في التحوُّل. قلت : سيصبح أُنثى لسبع سنين، مثل تايريزياس، عرّاف معبد دلفى، ثُّم يرجع ذكراً، فتعترف به جنائن اللوز عرَّافاً لمعبدها، وأحكم من ينطق

Twitter: @ketab_n

باسم الآلهة!

ثُم امتصت روحي كلياً رمانة لم أنتبه إليها من قبل، خضراء جداً، زرعتها أُمّي في حوض حجري بدائي، تحتها هشيم يابس، وزادت حدة خضرتها عتمة الضوء، وبرز أكثر، بالتالي، حضور الـ «جلُّنار»، زهور الرمان الحمراء الأشبه بنيران شفيفة غاية في النعومة والإيحاء، وبدت كضربات فنّان بفرشاة وحشية، على خلفية خضراء داكنة ، وكانت تشرق بنور غريب أشبه بشطحات صوفية لا يصح عليها لا نقل ولا عقل، وحتى أنا نفسي بدوت إشاعة في أذن المكان أكثر مني وجوداً صلباً. لقد استيقظت الأشياء! لا تنم أنت!

من زمن وأنا أحلم أن أعود طفلاً، بعد نضوجي، كي استيقظ. فجأة قال آثر، وكأنّه التقط هذه الفكرة من أغواري: «حسين، لم لا تصير أنت آثر، وأصير أنا حسين؟». غريب. روحي وروحه يعرفان بعضهما من حياة سابقة، حتماً، وإلاّ لما التقط ما أفكّر فيه. نعم، نعم، قلت لنفسي، القطط لم تعد، والضوء غريب، وشعرت بخوف، بحاجة إلى الهرب، كالقطط.

«الدنيا مقلوبة . كان يجب أن يأتي هذا المطر قبل عشرين يوماً، وليس الآن»، قالت أمّي : «نعم، نعم، مقلوبة، هذا أكيد»، تمتمت محتاراً. وطار العصفور عن سلك الغسيل إلى الرمانة، ووقف قليلاً بين «قناديل الجلّنار» ، ولمّا لم يستطع مقاومة هبوب الهواء، طار بطريقة مائلة، وكأنّ الريح سفته معها، وكان يشبه أغنية فيروز : «وقصتنا الغريبة شلّعها الهوا..»

وذلك الأبله يعزف على هارمونيكاه، لم يزل ... وانبعثت عطور سبق

Twitter: @ketab_n

وشممتها، روائح نعناع من الماضي، وتشابيه مدفونة في تربة الذاكرة. كلُّ شيء بدا مثل صينية «سعوطة» التي حملت عليها كلُّ قيامة الألوان إلى كهف «المربية» كي تشهد قيامة نايف من موته. وأفاقت فيَّ الكلمات المنسية منذ حياتي السابقة في دورة التناسخ الأبدي هذه، حيث يرجع كلُّ شيء، ولا شيء يرجع تماماً.

كنت قرأت لمحمود درويش، قبل ثلاثين عاماً، قوله :«خلت أنيِّ فراشة، في قناديل جلنار». وتذكّرت التشبيه وأنا أحدِّق في وهج الجلنّار. لم أشعر بأنيِّ فراشة بيضاء في القناديل، كنت مريضاً، وثقيلاً، وأبعد ما أكون عن بياض الفراشة. ولكن القناديل تتوهَّج في هذا الضوء الغامق، وحدها تتوهَّج، وحدها، وتضيء كسرب شموع في أيدي فرسان على خيولهم يمرُّون، ليلاً، في أساطير أهلي، في عرس صامت.

ألم تحن قيامتي، بعد؟ سأنضج عمَّا قريب، مع اللوز، والرمان، والورد، وأقول لهذه الجنائن : قد نضجت! وإن ضحكتُ ستشرق شمس، وإن بكيت ستمطر، وسأرجع طفلاً، وإن لم أستطع الآن، ففي حياتي الحالية سأحيا لأعرف، لكن في حياتي التالية في دورة التناسخ هذه سأرجع إلى الأرض وأمشي عليها كطفل – نبي.

■

Twitter: @ketab_n

سافرت إلى «مركز الأمل» للأورام السرطانية، في عمان. وأقمت هناك شهراً كاملاً، في «الرصيفة» : مدينة من غبار. والانتظار مرعب، انتظار نتائج الفحوصات. جسمي نفسه كان يتصلَّب، وتقلُّ حركته، ولا بكاء ولا فرح، مشروع تمثال. ولمن ينتقل من مستشفى إلى آخر، وينتظر قدره، مثلي، كلُّ «كيمياء الروح» فيه تستند إلى أيَّة قوَّة مغناطيسية هي الأقوى في قلبه : الأمل أم سينما الهلاك هذه. والسؤال، عندي، ليس متى أو كيف أموت، ولا حتى ثنائية الأمل والهلاك، بل ماذا سأخلق من نفسي، الآن، كي تكون نهايتي احتفالاً سامياً ببداياتي. فأجدني بدل الاحتفاء السامي بالبدايات أشبه هذا الفيلم الأميركي لمخرج مصاب بالإيدز، فيلم كله بالأزرق، لا تمرق فيه سوى أشباح أشياء زرقاء، وصوت المخرج يحكي: «أية جحيم هي غرفة الانتظار ...». وأية جحيم هي الرصيفة! مدينة من غبار خماسيني، وظهيرة صحراوية تشبه «واقعاً مقلياً على (45) درجة مئوية».

أفق من جبال رملية، مطفأة اللون، وبيوت من باطون مسلَّح ورمادي أشد ثقلاً من الجوِّ نفسه، وتبدو نشازاً، أو إجهاضاً معمارياً. ولا زهرة. خضرة قليلة، وفقر بصري، ومساحات تنتج جوعاً إلى اللون. ولمقاومة طاقة المكان المملَّة هذه، يحتفون بكلِّ «لون اصطناعي». وبكلِّ لون «فاقع». في كلِّ بيت دخلته بديل لموت الصحراء والمعمار.

مثلاً، أقمت مدَّة في «فيللا» لها صالون واسع كلُّ أثاثه مذهب، ويشعُّ في الضوء الأصفر، ليلاً، مثل عروق الذهب، وعلى الحائط ألواح ذهبية

Twitter: @ketab_n

مصمَّمة على هيئة «أبواب» مغلقة، ولا تقل لمعاناً، محفورة فيها آيات قرآنية. وفي الزوايا تتشعب زهور اصطناعية من قماش أحمر أو من بلاستيك أخضر. في غرفة استقبال أخرى طاولات صغيرة، وظهورها من مرايا، وتعكس كلَّ ما يوضع عليها، موزعة حول تلفزيون ملون، قربه، على اليمين، حوض سمك ملون، أيضاً، فيه شلالات مضاءة بالأزرق، في قعر صندوق زجاجي يتشبه بالمحيط. كلُّ شيء «كيتش» – براق ولامع، ويشير إلى ذوق رخيص لا يعي نفسه.

سرُّ كلِّ هذا الـ«كيتش» يكمن في محاولة السكان جعل «داخل البيت» عالماً قائماً بذاته، ملجأ من موت الطبيعة اللوني في الخارج، واحة، ولو مبتذلة. وخميس أموات من نوع آخر.

والرصيفة سوق تجاري، دكاكين وصيدليات ومطاعم ومحلات بيع أقمشة وأدوات كهربائية، مثلاً، ولا مقهى واحد يستحق الجلوس فيه، لا مكان للهرب من الغبار، ومن موت اللون، ولا منظر غير «آرمات» الشوارع الملونة بألوان متنافرة. أعني بأن مجرَّد الحياة هنا محض سوء تفاهم مع الله. وطغى عليّ حسٌّ بالطوق، بأن لا بديل، حيث من الممنوع، إنسانياً، أن أبقى، ومن الممنوع، واقعياً، أن أذهب، وأستطيع أن أكون أي شيء ، إلاّ أنا.

أهرب إلى البيت، فأجلس لساعات كاملة، وحتى لأيام، وأنا بلا حركة، أُحدِّق في نقطة أمامي، على المصطبة، أو أنام. وجسمي يتصلَّب، تدريجياً، وأتمنَّى أن أكون نحَّاتاً كي أنقش في حجر شعوري بـ «تصلُّب» جسمي

Twitter: @ketab_n

هذا. لا عجب أن يصاب المقيمون هنا بوسواس ديني غير سوي. هنا العالم مشبوه، وكلُّ ما يجمعه بأي عالم حقيقي مجرد وهم.

■

قال بول كلي، مرَّة : إنَّ الرسام لا يرسم «المرئي»، بل «يجعله مرئياً». والسرطان رسام جعل اللامرئي في عينيَّ مرئياً، حين يلتقي الفنُّ والحبُّ والموت في الروح.

فمثلاً، منذ البداية، بعد أوَّل جلسة للعلاج الكيماوي، لم أكن أستطيع المشي في كوريدور «مستشفى بيت جالا»، إلاَّ ولدي شعور بأنَّ وصول آخره مستحيل، وكأنَّ المسافة تكبر كثيراً حين نعجز عن المشي. وأحياناً يزوغ البصر فلا أرى غير ضوء أبيض يشبه رذاذاً ساطعاً لا أرى فيه أو به، وأكاد أقع، وبعد كلِّ خطوة أستريح. وتكبر التفاصيل، تصبح «مرئية». يتركَّز كلُّ انتباهي في بقعة من غبار في زاوية مهملة من الدرج لم ينظفها أحد، أو في قصاصة ورق مرمية، أو حشرة سوداء على الزجاج تحرِّك أجنحتها تحت الشمس ولا تطير. وكأنَّ كوناً ثانياً لم ألحظه من قبل، ونسيته، يحضر فجأة إلى الوعي.

في الليل، تلمع بقعة فضية تحت النيون على مقبض باب، أو على حافة كأس عصير البرتقال. وأشرد في الضوء. لا تغترب الأشياء عن عينيّ فقط، بل تغترب عيناي عن الأشياء، أيضاً. أحد الزوار، من مرافقي المرضى،

Twitter: @ketab_n

يمرُّ أمام الباب، فيرى برتقالة أمامي، ويشيح بنظره عنها، فهي «برتقالة لمريض»، وقد تُعْديه، وتشعُّ منها طاقة مرضية توقظ مخاوفه من أن يحدث له ما حدث لي.

هناك زوّار يشعرون بـِ«الشفقة» عليّ، وهناك من يرتعب، وهناك من يعتاش على مخاوف المرضى، مثل هذا الرجل من حركة «الدعوة»: سروال ولحية وصندل، وشكل غريب، وكأنّه من أهل الكهف. رأى زوجتي فاستيقظت شهواته الجنسية، فأخذ يروح ويجيء، وكلّما مرق من أمام الباب طرح السلام، ثمّ دخل لكي «يهدي أخاه في الإسلام»، ولكن عينيه تحملقان في زوجتي، ولا يرى بأنّني أرى، وأشعر بالغربة، بأنني صرت «نوعاً آخر» من البشر. فأحدّق في وهج البرتقالة، ولا أكلّمه.

«البرتقال يضيء غربتنا

البرتقال يضيء

والياسمين يثير عزلتنا

والياسمين بريء».

تفاصيل، تفاصيل، تفاصيل. وكأنّ كلّ فقاعة صابون كون. وأسهر، محدّقاً في الباب المفتوح على ممرٍّ خالٍ في الطابق الثاني، مضاء إضاءة حمراء شاحبة، فيطلُّ من الباب عجوز من الجنوب، بعباءة سوداء، وسروال كبير، وعلى ذقنه وشم، بعقال ثقيل وكوفية فظة، وكأنّه قفز من فيلم عن الفنّ البدائي، وفي يده قنينة من «حليب النوق». كنت رأيته في اليوم نفسه، عصراً. وقف في

Twitter: @ketab_n

الباب، عندها، وقال لي إنَّ خير علاج للسرطان «حليب نوق من سيناء!».
«ومن أين لي بحليب نوق من سيناء؟ لم أذقه ولا مرَّة في حياتي، وبالكاد أصادف ناقة في نصف قرن».
«حليب النوق فقاعة صابون»، هكذا قال، وضحك، دكتور الأورام:
«ولا كلّ حليب النوق في الربع الخالي يجدي فتيلا!». نعم، ولكن الإرادة تبحث عن حلٍّ ولو في فقاعة. «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل». فقاعة، نعم، ولكنها توقظ الأمل، ولو إلى حين.
والآن أتى بقنينة حليب من الجنوب، من «تقوع». فوجئت من كرم روحه. فمن أنا له حتى يأتي بحليب نوق من الجنوب، وكيف أتى به؟ وشربت أملاً حامضاً، أبيض، واستفرغت كلَّ ما في باطني.
كنت أعتقد بأنَّني سأموت، في خلال سنة أو سنتين، عندما مرضت، ولا بيت لزوجتي وابني بعدي. وبدأت أحلم ببناء بيت بسيط لهما في الريف: حوله تراب أحمر، وسياج من خشب ناشف، وحديقة صغيرة.وأزرع بصلاً، وثوماً، ونعناعاً، وبندورة، وليمونة. وفي الربيع، في صباح بارد، والندى فوق العشب، في أول الصبح، أنهض وأقطف بصلاً، وثوماً، ونعناعاً، وليموناً، وأصنع بيدي صحن «سلطة» لآثر وبترا، أصنعه بيدي أنا، هذا شرط. كلُّ الفكرة هنا. ثم أوقظ آثر وأمِّه، ونقعد على طاولة خشب بدائية، أوفي فيئ زيتونة، ونأكل معاً، هذا سيكون احتفالي بالحياة: صحن سلطة.

Twitter: @ketab_n

«لأوّل مرة أخرجوني إلى باحة السجن،

فاتكأت تحت الشمس على الجدار،

تعجبت لأنّ السماء زرقاء إلى هذا الحدّ، وبعيدة عني إلى هذا الحدّ ، أيضاً» .

هكذا قال ناظم حكمت. التفاصيل هي السرّ، التفاصيل الآن، لا ما مضى أو سوف يأتي، بل صحن سلطة، وقفة تحت سماء زرقاء إلى هذا الحد، قطّة تلعق مخالبها قربي، وآثر يلعب بالتراب. هذا هو كلُّ ما أريد. هل تصغر الأحلام إلى هذا الحد، أيضاً؟

السرطان رسّام يجعل التفاصيل الصغيرة «مرئية»، والحياة نفسها فنٌّ. وما هي إن لم تكن فنّاً؟

■

قال دكتور الأورام السرطانية في «مركز الأمل» ، بعد شهر من الفحوصات: «الفحوصات انتهت، أخبار جيدة. لم يرجع السرطان. أنت معافى. لكن هنـــاك ورم مساحتـــه (22) سم مربّع في الفلقة اليسرى من الرئة. سنعالجه بالكرتزون. لا حاجة لمستشفى، تستطيع العودة إلى ...» و لم يكمل، قلت: «إلى جنائن اللوز».

كتب الدواء. ضحكت وقلت في نفسي : «لم يرجع السرطان، لأنني الآن لست أنا، إنني أرجع طفلاً، والسرطان أصاب شخصاً يائساً، طاعناً

Twitter: @ketab_n

في السنِّ، في داخلي، شخصاً آخر لا وجه شبه بيني وبينه».
خرجت من المركز ضاحكاً، وأوَّل ما فعلته هو الوقوف بين ظلال الصنوبر قرب مستشفى الجامعة الأردنية. وكما قال حكماء الشرق المقدَّسون : إن كنت تقف في داخل نفسك في المكان الصحيح، فحيث تقف هو المكان الصحيح.
كنت أحتاج السفر، ولمدَّة طويلة، على ظهر ناقة، مثلاً، أو في سيَّارة، أو قارب، لكي أرى أمكنة كثيرة أخرى تمحو من ذاكرتي «دهاليز المستشفيات»، ومن أنفي رائحة الأدوية.
ووجدتني بعد يومين أمشي على شاطئ البحر الأحمر، ليلاً، مع آثر وبترا وصديق لنا دعانا إلى هناك. الزبد في الليل يشبه الفضَّة، والبحر داكن، وهدير يأتي من تحت البحر، ومن اليمين والشمال، من قريب ومن بعيد، وأمشي، أمشي، ويغسل الهدير كلَّ ذاكرتي، لا دهاليز تقود إلى غرف عمليات، لا إبر، ولا مستشفيات ولا حليب نوق، لا رائحة أدوية، أنسى، أريد أن أنسى، والبحر يغسل ذهني، وبالكاد يكفي كلَّ هذا الزبد والهدير لكي يغسل ذهني، بالكاد. وأمشي صامتاً، والهواء البارد يتشعَّب في رئتيَّ، ولا أشعر بضيق التنفس. قدماي حافيتان في الرمل، وأمشي، إلى الأبد. لا أريد الآن شيئاً غير الآن. بالكاد عندي وقت إلاَّ كي أشعر بالهدير يغسل قاع ذهني، ولا شيء هناك سوى الهدير.
في اليوم التالي، دعانا ذات الصديق إلى زيارة لمدينة البتراء. والبتراء مذهلة. كنت أحلم بها من عقود. اسم زوجتي، أصلاً، إيمان، وسميَّتها «بترا»،

Twitter: @ketab_n

المدينة الوردية».

كانت لذّة خالصة أن أرى «بترا» الآن تدخل في مدينة اسمها، وبدت شبه ملكة على عربة تجرها خيول الأنباط القديمة في مدينة الورد. وأنا من أنا؟ سائق عربة عربيد «يقهقه لأنّه لم يخسر اللعبة ، بعد» ، ويطوف ببترا في مدينة اسمها؟

مدينة منحوتة في صخر مذهل الألوان. إن كان عبدة النار يطمحون إلى الحركة والطاقة، فنحاتوا هذه المدينة حفروا إرادتهم في الصخر عبادة للجمال والثبات، مع إخوتهم، بناة الأهرامات، ومن اكتشفوا فنّ تحنيط المومياوات. وبين النار وبتراء، أو بين النار والمومياء، تتحرّك الروح فينا كلنّا. إن ملنا إلى النار صار كلّ ثبات وهماً، وإن ملنا إلى البتراء صارت كلُّ حركة وهماً. كلُّ الفنّ التشكيلي، مثلاً، يتحرّك بين حركة النار وبين ثبات الأهرامات، أو البتراء. وما هو الخوف من الموت إن لم يكن خوفاً من «التغيرُّ»، أي من قلق النار فيناً جميعاً؟

بترا في مدينة اسمها ؟

أمّا اسمي، حسين، فلا مدينة له. دائماً كنت أشعر أن لا صلة له حتى بي، أبداً، ولا مدينة له. ويشبه، في علاقته بي، قصّة «اسمي وأنا»، لتشيخوف. ومن الطريف اسم «برغوثي» نفسه، أيُّ أُفق يخلقه اسم كهذا، أيّة مدينة يمكن أن توجد لـ «برغوث»؟ عندما تزوّجتُ بترا سألتني : لماذا سمُّوكم «براغثة»؟. قلت لها ضاحكاً : «نسبة إلى الأسود!».

أمّا اسم أبي، «جميل»، فاسم جميل، ولكنّه سائد إلى حدِّ الملل، فالاسم

Twitter: @ketab_n

كالمدن : له مواطنوه، ويوحي بـ «مشترك» ما، بين من يحملون الاسم نفسه، أكثر مما هو موجود في الواقع. كل اسمي خطأ. ليس عبثاً أنني لم أدر بماذا أسمّي ابني، آثر، قبل ولادته.

فكرت في أن أسميّه «لوركا». «لا، لا»، قال الرَّسام إبراهيم المزين: «سيهيمن عليه اسم لوركا في طوال حياته، وسيرجعه دائماً إلى إسبانيا». ولم لا ؟

فكّرت بأن أسميه «المعتمد» (نسبة إلى المعتمد بن عباد) الشاعر – الأمير في الأندلس الذي تزوَّج من امرأة غريبة الأطوار : مرَّة وقفت في شبَّاك القصر، وقالت له بأنَّها تحبُّ رؤية ثلوج في الربيع، في الجبال ، هناك! فزرع لها الجبال باللوز، كي يبدو نواره في الربيع ثلوجاً بيضاء.

والمعتمد قصة. مرَّة طلبت منه بناته أن يمشين في الوحل، كالفلاحين، فمزج مسكاً وكافوراً في ردهات القصر ومشين حافيات فيه. ولمَّا فقد ملكه، وانتهى في «سجن أغمات مأسوراً »، تحسرَّ لأنَّ بناته :

«يطأن في الطين، والأقدامُ حافية

كأنَّها لم تطأ مسكاً وكافورا».

وبدأ الأمير الشاعر يدين الحياة :

«من عاش بعدك في مُلكٍ يسرّ به

فإنَّما عاشَ بالأحلام مغرورا».

Twitter: @ketab_n

ولا أريدُ مدينة اسم ابني أن تكون مدينة رغبات خاسرة، وأمراء خاسرين، كالمعتمد. وارتبكت تماماً، حتى جاءني صوت من الغيب في حلمي يهتف بي أن سمه : آثر، آثر، آثر! أي لست أنا الذي سمَّيته، ولست أدري، بالتالي، ما هي مدينة اسمه. ولا أحد لـه اسم كهذا ولا مدينة غامضة كهذه، لا يعلم بها إلاَّ الله .. لعلَّ هذا ما دفعني إلى أن أقرأ رواية «مدن الخيال» لإيتالو كالفينو.

وتخيَّلت بأنَّني سأذهب إلى «الدير الجوَّاني» بحثاً عن «مدينة لاسمي»، يمكن أن أسميِّها «قدورة»، مدينة قدورة! وهي من «مدن الخيال»، وشوارعها من حكايات. وأستطيع أن أبنيها بشفاهي، وشفاه أمِّي، وأن أنقلها إلى أيَّة شفاه تحبُّ أن «تحكي قصصاً». مدينة من هباء :

«إنت من وين؟

أنا من بلد الحكايات».

ومن أصدقائي علي بابا، وأنكيدو، وكلُّ من ولدوا وعاشوا وظلُّوا في الحكايات. والحكايات شبابيك الروح، والخيال. مثلاً، عندما كان قدورة يفرد عباءته على سطح الدير، ويعزف على ربابته، ويطلُّ على أودية مقمرة، وجنائن محروثة ومزروعة، ومسافات غامضة ومفتوحة، ويغنِّي، كان يفتح في الفضاء المقمر شبَّاكاً لصوته، ويحتلُّ صوته حيِّزاً أزلياً في الفضاء، وغناؤه كان «مدينة اسمه» :

Twitter: @ketab_n

«وإنت من وين؟

أنا من بلد الشبابيك..»!

إن كان «الدير الجوّاني» هو مدينة اسمي، أو رمزها، مثلاً، فإنّها مدينة تطير، كهذه الأفعى الزعراء والملّونة التي تطير فوق الجبال المقمرة وتزغرد، مدينة ليست مقيَّدة كالشجر بجذوره، لا جذور لها، في الحقيقة، بل خفيفة جداً، وموجودة في لحن ربابة ضائع، أوفي أُغنية قاطع طرق، مثلاً، أو حكاية عن الجنّ .. وإن كان «الدير الجوّاني» هو مدينة اسم قدورة، هل لي «حارة» فيها؟ أم أنّ عليّ أن أواصل السفر في «جوّانيتي»، و«برّانيتي»، بحثاً عن مدينة اسمي، وعن اسمي، وأن أمنح قدورة نفسه مكانا في «مدينتي»؟ سكان «الرصيفة»، أساساً، لاجئون فلسطينيون من حيفا أو يافا أو اللد، أو ... أو.. وإن سألت أحدهم من أين أنت؟ سيقول : «أنا، أصلاً، من حيفا أو يافا أو اللد .. أو.. أو..»، أي لا يعتقد بأنّ «الرصيفة» هي مدينة اسمه، وكثير منهم لم يعرف، و لم ير «مدينة اسمه»، أو «أصله»، هذه، أبداً. فهي مدينة ركّبها في خياله من حكايات أمّه وأبيه وجده، ومن صور كاميرا قديمة، ومن كتب، وهكذا، وهكذا.. لم ألتق أحداً يعتبر الرصيفة «مدينة اسمه». هذا هو سرُّ الرصيفة نفسها : وعاء تقيم فيه أسماء فقدت مدنها، وتبحث عمّا فقدته. وهي أسماء هائمة في الصحارى، كالرياح، ليلاً، أو في الزمن، و قد تمرُّ بكلِّ «مدن الخيال» في الدنيا:

Twitter: @ketab_n

«وكلُّ ليلة بغنّي في مدينة،

بحمل صوتي، وبمشي عطول».

وقد تصل، يوماً ما، إلى «المدن المفقودة»، من يدري. أمَّا الرصيفة نفسها فسوء تفاهم مع الله، كما قلت، حاضرة لا ينتمي إليها أي اسم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث :
عندما لا تجيء الثعالب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بنينا حلمنا، أنا وآثر وبترا : بيتاً جديداً وصغيراً وأبيض، في حرش زيتون، قرب قمّة جبل برّية. هذا هو بيت اسمي : «وبيته في آخر البيوت..»
أقعد على فراش أوعلى كرسي قشٍّ، في فيء زيتونة مقمرة، قرب «البيت الذي قرب الرمل»، كما يسميّه آثر، وأحدّق في الأودية، وهياكل شجر غامضة تشبه كائنات بدائية تحرس «خط الشفا» (الأفق) الذي يفصل قمة الجبل عن السماء. كلّما أرى هذا الخط أتخيّل أغنية فيروز :

«كنّا أنا والليل نمشي عالهدا
ويقلّي : لعتّم الدنيا عليْك ،
تعندهن توصل وما يشوفك حدا» .

Twitter: @ketab_n

وفي المنفى ، كتبت أغنية عن «خط الشفا» هذا (عن قاطع طرق ، يغني لـ «سبعة» – أنثى من إناث السباع التي نسيها الله في هذه البراري) :

«مرّة القمر وقفْ معي وقفة عراس الجبلْ

فرسي معي

فرسي الأصيلة، والبارودة، والعباية، والشنبْ مفتولْ

– عمّكْ حطّ قلبه في الشنبْ لما فتلْ –.

واقف لحالي مثل لحراشْ : جامدْ عشعراتي الندى

واقف لحالي

والهوا شمالي، وعبالي تيجي شغلات جوّا القلبْ

مدفونة ما شافا حدا.

نزلنْ سبعْ دمعات ودمعةْ

– والدمعْ غالي، يا «سبعةْ» – واسمعي :

عمّك حياته قاسية!

فرسه معه

فرسه الأصيلة والبارودة والعباية

– عمره ما طاق الذل بين الأراضي الواطية – ».

هكذا كان «خط الشفا» في مخيِّلتي، ثلاثون عاماً في منفى طوعي، وهكذا كان «خطُّ الشفا» في مخيلتي. والآن، وأنا قاعد في فيء الزيتونة المقمر، تخيَّلته «سلَّماً» : كان الفراعنة القدماء يعتقدون أنَّ السماء الأولى من حديد، ومن يريد الصعود إليها يصعد عن قمم الجبال، سلالم الروح.

Twitter: @ketab_n

وأشعر الآن بخوف ما من هذا الخطِّ، ومن هياكل الشجر البدائية والغامضة عليه. وساوس تطفح من ذهني.من يدري، مثلاً، ماذا يسري في هذه البقعة اللامرئية بين التراب والظلال المقمرة، من قوى خطرة؟ قد تتقلَّب أفعى «زعراء» ، كتلك التي لدغت «قدورة»، تحت المخدَّة، أو قد تتوالد عقارب شقراء من ضوء القمر والتراب، ولا أراها. أعني أنَّ ذهني يسيل عقارب وأفاع، أحياناً، وتلزم قوَّة روح كي أهتف :

«ولست ممن إذا اتقى (م) عضاض الأفاعي نام فوق العقاربِ»

وإلاَّ سينام ذهني فوق عقاربه، فرحاً لأنَّه نجا من أفاعيه!

عدت و لم أعد إلى هذا الجبل. كأنيِّ عدت، ولكن لم أعد. لا سلام هنا، وأرغب في بناء سياج فاصل بيني وبينه. عند «خَطّ الشفا» تبدو أكثر النباتات إلفة غريبة، وبدائية، وغير محددَّة الملامح، و«يغنِّي الجبل» : فتفيض عنه أصوات وحوش لم أعرفها من قبل، وأخرى أعرفها، تأتي من الأودية، ومن خَطّ «الشفا» : نباح كلاب مصروعة تحاول أن تنهش وحشاً آخر، وبرجمة حمام من عشٍّ فوق سطح البيت، وثعالب، وحفيف نسناس، وخطى قطط برِّية، وعزف ناي يبدو وكأنَّه من كهف في الذاكرة. وفوق هذه الموسيقى التصويرية الغرَيبة، قمر أحمر حمرة داكنة، ومستدير، يشبه وجه إلهة صامتة، مغمضة العينين، تتأمَّل فوق قمة الجبل، وتصغي إلى أزيز صراصير مستمر يشبه خلفية ناعمة لهذه الموسيقى التصويرية الغريبة ذاتها. كلُّ نغمة توحي إليَّ بأنْ لا تنم في فيء زيتونة مقمرة في هذه البقعة من

Twitter: @ketab_n

اللامكان، ولا تتسكَّع بعيداً عن البيت الذي قرب الرمل، لأنَّ الزهور البرِّية المتوحشة نفسها ستفتح قدميك لكي تشبها حمرة القمر هذه!

وبسبب من التهاب الرئة، والقصبة الهوائية، تخرج مني عندما أتنفَّس أصوات أغرب من «غناء الجبل» : حشرجة تشبه حيواناً أسطورياً جريحاً، ونداءات تشبه صهيل حصان يأتي من البطن، وهكذا، وهكذا. وتتداخل الأصوات كأنَّ غابة في حنجرتي.

في البدء كنت أميِّز بين غناء الجبل وبين أصواتي، ولكن صرتُ أرتبك كثيراً في المدَّة الأخيرة. يكون الجبل صامتاً، والقمرُ الأحمر مغمض العينين، وفجأة تأتي من أغوار الأودية أصوات غريبة ليست لإنس ولا جنٍّ، فأصغي. وبعد قليل أعرف أنَّها من حنجرتي، وصدري، بسبب من ضيق التنفُّس. ولم أعد أعرف الفرق بين وحوش الجبل، وأوتار صوتي. هل بدأت أتوحَّش، أم أستألف الوحوش؟ وكأنَّ الجبل في بطني، هو ووساوسه. فضوء القمر الهادئ هذا قد يتخثَّرُ إلى عقرب، أو أفعى ملونَّة تخرج من عرق الزيتونة، إن غفوت، وقد يأتي ضبع ينهش ما عاد منِّي. ومن يدري، قد يغتالني أحد ما، عند هذه الحافة النائية.عدت ولكن لم أعد.

وقفت في شبَّاك مضيء قليلاً، في البيت الذي قرب الرمل. في أي شبَّاك وقفت ؟ وفي أي زمن ؟ ومتى كان ما كان؟ لا أدري. ولكن كنت أرى الزيتونة منه. وأفكِّر في هذه العودة إلى السكن في ريف رام الله عودة غير محكمة الحبكة. جاءت ثعالب خمسة، بعضها أسود، وبعض أقرب إلى الأحمر. وأخذت تلعب تحت الزيتونة ذاتها، وتحتل الحيِّز نفسه الذي

Twitter: @ketab_n

كنت فيه. لعبت بالمخدَّة زمناً، وجرَّتها هنا وهناك، ثمَّ جرَّت فراشي كلَّه من تحت الزيتونة إلى بقعة في وسط الخلاء. سحبتْه إلى بقعة أدق، بقعة في اللامكان. عدت، ولكن لم أعد. وأدركت الثعالب هذا.

كلَّ ليلة هكذا، يطغى عليَّ شعور بتخلُّع المكان، وتخلُّع إدراكي له. نسناس بوجه بومة يأتي كي ينبش في كيس قمامة رميته هناك، وقطط بريِّة تعبر بعيداً عنِّي، بحذر.

مرَّة جاء من جهة الوادي غناء كائنات يشبه عرس جنٍّ، بدفوف ونايات، أو زعيق طيور بحر، ومشى الغناء صاعداً نحو «خطِّ الشفا».

ليس هذا «جبل الذاكرة» الذي أعرفه، بل أقرب إلى «جبل الآلهة»، جبل يحلم عرس جنٍّ، ويحلمني. لمَّا تناهى الغناء الغريب، واختفى عند وجه القمر الأحمر فوق «خطِّ الشفا»، جاء ثعلب أسود، ورفع أُذنيه وكأنَّه يصغي للريح، ثمَّ رآني تحت الزيتونة. كنت قريباً منه، ولكنَّه أدرك أنَّني غير قادر على الهجوم على أي كائن، كائناً من أو ما كان، فمرق عنِّي وكأنَّني أقل من شبح. وأمام البيت، على حجر في رذاذ ضوء أصفر شاحب، كان يقف نسناس يمطُّ رقبته عالياً، ويحاول أن يرى ما في الداخل، ثمَّ يتجمَّد من روْاه.

والمرض، كالزمن، «يكسر الزوايا الحادة» فينا جميعاً. فبدوت في نظر نفسي ظلاًّ مقمراً أحمر آخر، واقفا فوق صخرة عند «خَطّ الشفا»، وقد تأخذه هبَّة من هواء، أو تحمله أغنية ناعمة.

والجبل كلُّه ظلال، ربَّما لذهني ووساوسه. وعليَّ تعلُّم فنَّ «ملاكمة الظلال».

Twitter: @ketab_n

ولكن، في هذه البقع الموحشة، لا أحد يجرِّب سيفه في هباء، أو يطارد أشعة القمر برمح خشب.أقعد وأفكر في قوَّة الظلال التي تسيل مني، وحولي. لا يكفي أن تبني «بيتاً جديداً»، يجب أن تبني روحاً جديداً.

ثلاثون عاماً في المنفى، وأنا من «عبدة النار»، من قبيلة تجوب البحر على ظهور السفن. كنت كما كنت، واحداً ممن كانوا كما كانوا :

«.. سليقةَ كلِّ نهر لا يفتشُ عن ثبات

يجرون في الدنيا

لعلَّ الدربَ يأخذهُم

إلى دربِ النجاة من الشتات» .

ورجعت إلى هذا «البيت الذي قرب الرمل»، عبر «درب النجاة من الشتات»، الذي بدا درباً نحو «المحدود» في التجربة، والمتناهي فيها. هل هذا صعودي، أنا الظلُّ المقمر الأحمر عند «خطِّ الشفا»، إلى سماء الحديد الفرعونية، أم هبوطي من هناك إلى درك سفلي، أي هل رجعت بسبب من طفح في القوة، قوَّة فائضة فيَّ، أم من كثرة «الإنهاك»؟

عليَّ العودة نحو الطفل الكامن فيَّ، لكي أمشي في الأرض طفلاً – نبياً، إن لم يكن في حياتي الحاضرة ، ففي حياتي التالية. نظرت إلى آثر، ابني الذي كاد أن يصل الرابعة الآن، وهو يلعب قربي، تحت فيء الزيتونة المقمر. منذ مدة وأنا أحاول أن أتعلَّم منه العودة إلى الطفل – النبيّ الكامن فينا كلّنا.

Twitter: @ketab_n

رأى غمّازة طائرة حمراء، تضيء وتخبو، من هذا النوع الذي يستعمله الإسرائيليون الآن لتصفيات نشطاء الانتفاضة. كانت مارقة قرب القمر، وتغمز، كعين إلكترونية تتشبَّه بالحوريات. سألني : «حسين، هذه الطائرة من شو؟». «من حديد». «وهل يخاف القمر من الحديد؟». «نعم، نعم. يخاف القمر من الحديد».

كلُّ طفل ساحر بدائي. وله عصا كعصا موسى، من كلمات مسحورة. أوَّل لفظة لفظها آثر كانت الـ «طائرة»، ثمَّ «القمر»، والـ «هلال». كان يقول عن الهلال إنَّه «يشرب الحليب، ويمشي معي، إلى أمهُّ القاعدة على رأس الجبل». وبنى أسطورة من كلماته، من أسماء الأشياء كما تبدو لأعينه المسحورة. من «طائرة»، و«حديد»، و«خوف»، تناسلت أسطورة «القمر الذي يخاف من الحديد». لغة ساحرة في أُسطورة أكثر سحراً.

الطفل يرى بعيون مسحورة. جنين عرَّاف. كان آثر صغيراً، لا يفقه اللغة بعد، في غرفة مضاءة بشموع، ويحدِّق في ظلٍّ غامض بين الكرسي والجدار. وكان يتفلَّت منِّي وكأنَّه يرى معجزة في الظلِّ، وضحكت منه «هذا ظلٌّ، محض ظلٍّ، لاشيء هنا، عمَّ تبحث؟». كان أصغر من أن يفقه قولي. وفجأة خطر ببالي سؤال غريب : ماذا أقصد أنا، حين أقول: «هذا محض ظلٍّ، ولا شيء هنا؟»: وبدا لي أنَّني أعمى، وأنَّه يرى عوالم كاملة لا أراها، وتعوَّدت عليها. لا شيء هنا؟ من قال هذا؟

من زمن وأنا أراقب لغته. مرَّة سمعني أشتم شركة الكهرباء لأنَّ النور انقطع. كنَّا في بئرزيت، أيامها. وسقطت ثلوج كثيرة كسرت الصنوبر والسرو

Twitter: @ketab_n

في الحرش. نظر من الشباك إلى الثلج على الشجر المتكسرٌ، و شتم «شركة الثلج»، وشركة «البرد»، ورأى شركة لكلٌ شيء : للقمر شركة، وللنجوم شركة أخرى.

كان نائماً في حضني تحت النجوم، ويحرّك أصابعه قائلاً لها : «قلت لكُنّ لا تلعبن وحدكن في الشارع»، ثمّ يقول أن يده تركته ثمّ ذهبت إلى النجوم. ومرّة أخذته إلى «القدس القديمة». فوقف في باب «خان الزيت» ، سوق مسقوف أشبه بدهليز يعجٌ بالحناء، والذهب، والسائحات، والجنود، والرهبان وهكذا، وهكذا، فارتجف مرتعباً، لأنّه اعتقد أنّ خان الزيت كلّه «مصعد كهربائي»، ممدّد أفقياً، ورفض دخوله.

ومن رؤى من هذا النوع، يبني أسطورته الخاصّة. ولا أحد يشبه أحداً هنا. لكلٌ حكايته. وما هي حكايتي مع هذا المكان ؟ حدّقت في «خطٌ الشفا» شارداً، وسألت نفسي، كأنّني آثر : «حسين، هذا شو؟». وجاء صوت من الذاكرة يكرّر : «خطٌ شفا، خطٌ شفا». فردّ الطفل النبيٌ الكامن فيّ: «طيب. وخط الشفا هذا شو؟».

أحدّق في فيء الزيتونة المقمر وأسأل : «حسين، هذا شو؟». فتردٌ ذاكرتي: «فيء زيتونة مقمر». فتضحك ثعالب الجبل وتقول: «لا. لا هذا الفيء عقارب، سيل عقارب. ولكن تصرٌ على أنّه فيء زيتونة مقمر. ليس لديك ذكاء قلب!»

أعدنا أيها البحر القديم إلى «وشاح الحور أخضر في الرماد، وفي رؤى شعرائنا»! إنس يا حسين أحبّاء ماتوا في البحر والسفر، وصاروا «شجرا

Twitter: @ketab_n

من المرجان في القيعان». وعد إلى أوّلك!

برج آثر الحوت ، برج مائي متقلّب، وفنّان بطبيعته .

سافرت معه إلى باريس، قبل مدّة. هناك، في بيت المخرج المسرحي، فرنسوا أبو سالم، سمعت تسجيلا لـ «أغنيات الحيتان الزرقاء».

الحيتان الزرقاء مذهلة . لسان حوت صغير منها أثقل من فيل. ولها نتوء فوق الأنف تستشعر به أمواج الجاذبية الأرضية، فحساسيتها للجاذبية أكثر من الإنسان بخمسة وعشرين مليون مرّة. وهذه الثدييات تغنّي، في أغوار المحيطات، مارقة بين بحارة غرقوا وصاروا «شجراً من المرجان في القيعان»، بتنويعات على أكثر من أربعمائة صوت، غناء يبدو قادماً من بطن الكون، ومن قلق لم يحلم به حتى السحرة، وأيقظ فيّ هذا شعوراً لا عهد لي به، من تلك الأيام الكنعانية في «الإينوما إيليتش»، حين لم يكن هناك بعد اسم للسماء ولا للأرض، والكون محض عماء.

وبرج الحوت الأزرق، عندي، مائي، وفيه أربعة أنواع من الإلهام. مثلاً، ميزّ لوركا بين أربعة أنواع من الإلهام الفنّي :

عند العرب، حين يلهم الله مغنّياً، يهتف الناس «الله! الله! يا شيخ». ويدعو العرب هذا «طرباً». كان في مدينة البتراء معبد يشبه معبد ديونيسيوس، إله الخمرة، والسكر، والرقص، والموسيقى، والنشوة، الذي يجعل الكرمة تورق في خشب سفينة. وكانت العرب تقول عمّن مسّه جنون ديونيسيوس هذا «لقد بطر»، نسبة إلى «بترا»، التي كانت العرب تلفظها «بطرا». وتحرّفت اللفظة إلى «طرب».

Twitter: @ketab_n

أمَّا في إيطاليا فالإلهام «ملائكي»، والملائكة أبرياء إلى حدِّ البلاهة، وتلميحات إلى حالة بيضاء، لا تعرف الخير والشر، بعد ، فهي أشبه بِـ «مطر ناعم في خريف بعيد». ولكن الإلهام عند الإغريق «قمري». فربات القمر التسعة ، الميوزات، هنَّ من يلهمن المغنِّي، وينفخن من أنفاسهنَّ في فمه. هكذا يبدأ هوميروس، مثلاً، ملحمة الأوديسة، بأن يسأل «الميوزات» أن يلهمنه، أو حتى أن يغنين، بدلاً عنه. ولكن نفسهنَّ بارد، ويمنحهن لوركا «نصف قلب من رخام»! والرخام لا يرقص، ولا ينبغي له، فيه صيغة «عاقلة»، ربمَّا، وجامدة، خطوط مستقيمة، وزوايا، وهندسات. إلهام بارد!

أمَّا الإلهام في إسبانيا، فشيطاني، يدعى الـ «دويندي» : ويشبه زجاجاً مسحوقاً في الدم، لأنَّ الميت في إسبانيا أكثر موتاً من أي ميت آخر في العالم حيث لا يوجد بلد فيه الموت مهرجان شعبي إلاَّ في إسبانيا : مصارعة الثيران. الموت والحب يجتاحان الروح هنا، كما في قول لوركا، في «قصائد الأُغنية العميقة»، مثلاً :

«خنجر
يدخلُ القلبَ كمحراثٍ
يدخلُ الأرضَ الخراب.
لا!
لا تغمده فيَّ !
والخنجرُ

Twitter: @ketab_n

مثلَ شعاعِ شمسٍ
يشعلُ التجويفات.
لا!
لا تغمده فيّ!»

برج الحوت الأزرق ، كما قلت ، مائي ، فيه نفحة من كلِّ أنواع الإلهام هذه . فيه شيطانية الـ «دوندي» : يشعر بكلِّ كيانه، وكأنَّ عقله أحشاء قلبه، وإن كتب ، فإنَّه يكتب بالدم، وهذه خير كتابة، كما يقول نيتشة. «فاكتب بالدم، لكي تعرف أن الدم، أيضاً، روح!». وفيه من الميوزات حسٌّ بـ «المقياس»، و«الحدود»، و«النظام». من هذا النوع الذي جعل «ليوناردو دافنشي»، على ما أعتقد، ينحت تمثالاً سحر الناس بجمال أنفه، فكسر أنفه بمطرقة لأنَّه أراد أن ينحت تمثالاً جميلاً، لا أنفاً جميلاً، فقط . ويحنُّ الحوت الأزرق إلى أن يطفح وراء أي حد، ومقياس، ونظام. فيه حسٌّ ما ورائي، مجنون، بالحرية. حسٌّ نجده، مثلاً، في موسيقى زياد رحباني. ومن العرب، فيه هذا الذي نهتف عندما نسمعه : «الله! الله يا شيخ!». وفيه بياض الثلج، ونقاء الملائكة.

ودائماً ستجده يلعب عند هذهِ الحافَّة الشفيفة بين المسمَّى، واللامسمَّى، عائداً إلى هذا الزمن الكنعاني عندما لم يكن هناك بعد اسم للأرض أو للسماء، والكون عماء. إنَّه برج الطفل النبيّ.

والطفل النبيُّ ليس «طفلاً»، بل حوتاً أزرق سبح في الأغوار، بين بحارة

Twitter: @ketab_n

صاروا شجراً من المرجان في القيعان، وعلَّمته الرقص متاهات كبرى، أي نضج، وبعدها رجع طفلاً. ومن أسمائه الـ «عبقري»، عند بودلير، والـ«عرَّاف»، عند رامبو.

ويحبُّ الحياة أكثر مما يمكن لأحد أن يتخيَّل. يشبه اللقطة الأخيرة في فيلم «الراكض على نصل الخنجر أو (السكين)»: لقطة لإنسان – آلة، على ظهر ناطحة سحاب، تحت زخات مطر، وقد بقيت له عدَّة ثوان فقط، ليموت، وفي يده ألدّ عدو له، إنسان ما، فيقول لعدوه هذا : لن أقتلك، لأنَّني أحببت الحياة أكثر مما يمكن لك أن تتخيَّل، ويفتح يده نحو السماء الماطرة، فتطير منها أسراب حمام أبيض، أبيض، أبيض. يا إلهي كم كان الحمام أبيض، أبيض، أبيض. وبرجه، عندي، «الحوت الأزرق».

■

مثلاً، زارنا فرانسوا في البيت الذي قرب الرمل. وجد في الجبل سنبلة يابسة، أعطاها لآثر قائلاً : «هذي شو؟». فكَّر آثر قليلاً وهو يقلِّبها بين يديه، ثم أجاب : «هذه ؟ لكي نقرع بها الجرس!». «أي جرس؟» «جرس العالم». «وكيف صوت جرس العالم؟». ضحك، وقلَّد صوت سيارة إسعاف كان سمعه لما زارني في مستشفى رام الله.

الطفل، بطبيعته الأولى، والبدئية، يرى الدنيا بطريقة «ملتوية». هذا فنٌّ. كان لوركا يقول : إنَّ الفن «تجنُّب»، كما في مصارعة الثيران : فأي أبله

Twitter: @ketab_n

يمكنه أن يلقي بنفسه إلى التهلكة على قرون الثور، ولكن الفنَّ أن يلقي الميتادور (مصارع الثيران) بنفسه على القرون، ثمَّ يتجنَّبها، في آخر برهة. وهذا الجبل «قرن ثور»، وعليَّ أن أتجنَّبه في آخر برهة. وأن أراه بطريقة «ملتوية»، كطفل.

مثلاً، صرت أتخيَّل، كآثر، الجبل «جرساً» من نحاس أحمر، جرساً مقلوباً، ونباتاته وصخوره مسبوكة من نحاس، وتلمع تحت قمر أحمر يبدو مثل وجه إلهة مطرقة ومغمضة العينين. وأتخيَّل أنَّه سيرنُّ، لو مشيت أنا وآثر عليه، كأننَّا «سنبلة تقرع جرس العالم». لو مشينا عليه، قرب خط الشفا، سيتخلَّص الجبل من «ثقله»، ويرنُّ، يرنُّ، كأنَّ خطانا عليه عصا من نحاس في يد كبير من كبار موسيقاريي الجن. وتأتي «الغريريات» مسحورة برنينه، والثعالب، والأفاعي، والنَّاس، وكلُّ كائنات هذا الجبل، وتسمع هذه النغمة الجديدة لذاكرة عادت إلى أولها ، ويمتُّد الجبل فيها ، كأصوات الوحوش الممتدَّة في حنجرتي .

نعم، نعم، نعم. ما دمت لا أُميِّز بين أصوات تفيض عن حنجرتي وصدري، وبين أصوات الوحوش هنا، أي ما دام صوت الجبل يمتدُّ في صوتي «مدَّ الزيتون في الزيت»، فأنا هو، وهو أنا، ونحن معاً جرس العالم، أو «برقية الحنطة في مرج الرصاص».

ولأنَّني منحاز للحنطة، أمسكت آثر من يده، ومشينا نحو خطِّ الشفا. سنتوغَّل في الذي يخيفنا، في «الحديد» الذي يخاف منه القمر، لكي نسبك منه عودتنا إلى ناي «قدورة» أو ربابته، بالجرأة.

Twitter: @ketab_n

فجأة سمع صوت وحش غريب. «حسين، هذا شو؟». «لا أدري». قبض على يدي خائفاً وقال : «إرجع، إرجع». ورجعنا. فشلت العودة ! وفي الليلة نفسها التي أتحدَّث عنها، جرَّت الثعالب فراشي نحو هذه البقعة التي قال لي عندها : «إرجع، إرجع».

فتحت الراديو لأستمع للأخبار.المستعمرون يحرقون جبل زيتون في قرية ما في الشمال. وتخيَّلت المشهد : الدخان والنار، والريح تسفوهما في الأفق، والوهج يضيء الأودية في نسخة أُخرى، ومن نوع آخر،عن فيلم «الصحراء الحمراء». قال آثر : «حسين، لا تسمح للراديو أن يتكلَّم عالياً». «لماذا؟» «ستخرج منه حية!». طيب. طيب. وضعت شريط موسيقى. «حسين، في الموسيقى صرصور». يا إلهي من هذا البيت الذي قرب الرمل! عدت ولكن لم أعد!

■

لا يعود أحدٌ إلى أوَّله، ولو لماماً، إلاَّ إن عاد إلى تاريخه، إلى نفسه في تاريخه. مثلاً، كنت أبحث عن مدينة لاسمي. وفقط في التاريخ يمكن أن تكون لأي اسم مدينته. مثلاً، في «البتراء»، هذه المدينة التي نحتها في الصخر الوردي «نحَّاتو الزمن» من العرب القدماء.

هناك، وأنا قاعد مع بترا وآثر، أمام «أعمدة الخزنة»، وأراقب سائحاً «يعشق جمع الصور»، وجملاً عليه سجادة بدوية مطرَّزة بأشكال هندسية، وكلباً

Twitter: @ketab_n

ضخماً للحراسة، شعرت أنني ابن هذا الإرث. وتتأرجح روحي أمامه بين الصخر والرماد، بين الأهرامات والأغاني العابرة. من هنا جاء الخطُّ النبطي الذي جاء منه الخطُّ العربي الذي أكتب به. نحتوا مدينة في الصخر، وأُخرى في الخط. وأنا ؟ من مواليد «خارج الزمن»؟ بقي لي جمل يركبه سائح في عنقه كاميرا؟

خسارة، قلت لنفسي، أن تمرَّ على سطح الأرض، ولا تغيرَّ شيئاً، أو تترك أثراً، خسارة، يا ابن هذا الإرث العظيم! خسارة أن تولد وتموت في زمن مهزوم، بوعي مهزوم، وخائف، وحتى اسم ابنك، «آثر»، حسبوه «آرثر»، اسماً غريباً، اسم من استعمروك، و لم يخطر ببال أحد أنه من «لسان العرب»! خسارة أن تفقد نفسك إلى هذا الحد. هل هذا التشرُّد من التاريخ، أو «فيه»، هو ما يجعلني أبحث عن مدينة لاسمي، ولا أجدها؟ سرٌّ تشرد اسمي نفسه؟

في مدخل البتراء دفعت «ثمن تذكرة» للدخول، ثمناً عالياً لا يدفعه إلاَّ سائح أجنبي، وعبثاً حاولت أقنع الموظف أنَّني لست «أجنبياً»، عن إرثي، وإرثه! عندما يفقد أحد ماضيه تماماً، تستطيع أن تصنع بمستقبله ما تشاء، لأنَّه قد فقد «ظلَّه» الممتدَّ في التاريخ. هذا الصخر الملَّون في بتراء ظلي، أنا الذي قدره فقط، أن «يزاقب»، و«يرى»، و«يمرُّ»، ولا «يتدخَّل»، ولا ينحت، ولا حتى يحتجُّ، ويحمل ورماً ملتهباً، سيلاً من خلايا حمراء في فلقة رئته اليسرى.

بقي لي جسدي، من كل هذا الإرث، بقايا جسدي، بالأحرى. بقايا تشبه

Twitter: @ketab_n

أُغنية فيروز :

«يا شجرة الإيام ، غيّرنا الهوا

فرفطلنا الورقات وعرينا سوى

يا شجرة الواقفة بمهب الهوا

مثلك أنا : شجرة على مفرق طريق!»

هذه أغنية جسد شلح تاريخه أو شلّحوه إيّاه، ويشعر، تحت هذه الزيتونة المقمرة، أنّه «خارج الزمن»، وحده، ليس حلماً، بل انعكاس حلم. والفرق هنا «حرف راء» به يصبح آثر، مثلاً، «آرثر». ما دام الحاضر «قرن ثور» عليّ أن «أتجنّبه»، كي تستقيم رؤاي.

منذ زمن وأنا أطير كعصفور سفته الريح، بطريقة «مائلة»، وأتجنّب، كي أرى. مثلاً، تعرّفت إلى زوجتي، بترا، في ستوديو كنت أسكنه في رام الله. وقبل أن تأتي، وأتعرف إليها، كنت، ليلاً، أرقب ظلّي على جدران البيت، تحت ضوء شمعة، وأشعر وكأنني هو، أو كأنّ ظلّي هو الذي يرقبني، وأبدو «مسطّحاً»، مثل هذا العرّاف الجاهليّ، «سطيح»، الذي كان يطوى جسمه كثوب ويمكن أن يرتّب في خزانة.

وعندما تنقطع الكهرباء، مثلاً، تغمر العتمة كلّ شيء، تختفي كلُّ ظلالي، ويبقى جسد – كتلة صمّاء لا ظلال لها، أتحسّسها وكأنّها جدار من الإسمنت الخشن. شعري نفسه بدا وكأنّه ينمو من جلدي كالأقحوان، والسنابل، وكأنّني حقل، أو تلٌّ أثري، أوليس هذا حنيناً إلى التاريخ؟. وفي

Twitter: @ketab_n

ليلة ما، في حمام الأستوديو هذا، وقفت أمام المرآة، تحت إضاءة كهربائية صفراء، خافتة : وحدَّقت في وجهي، وكأنني شخص آخر.

كان شعري طويلاً جداً، وأشقر وأجعد، ويتدلىً ضفائر على كتفيَّ، وكان مبتلاً، والماء يقطر منه على عينيَّ، وحواجبي، وشفتيَّ. وفجأة رأيتني كثَّ الحواجب، عجوزاً كهلاً وهن العظمُ منه واشتعل الرأس شيباً، بشفتين غليظتين في غاية الحمرة، وعينين غريبتين تسبران الغيب، ولا تريان ما أمامهما، وشعرت بأنني تايريزياس، عرَّاف معبد دلفى، في القرن الرابع قبل الميلاد. لست من هذا الزمن. وبدأت أنشد من قصيدة «الأرض الخراب»، لـ (ت.س. إليوت) : «وأنا، تايريزياس، الذي رأى كلَّ هذا ..».

وخرجت من الحمام إلى ساحة مزروعة بالليمون واللوز، والنجوم، حول الأستوديو، وأنا أكرِّر : «وأنا تايريزياس الذي رأى كلَّ هذا ..» ورأيت رام الله، بنت هذا التاريخ المختلِّ، وقلت : أنا الشاهد الأوحد. اللهم فلتشهد!

أتت بترا إلى الساحة. وتعرَّفت إليها بين اللوز. وتزوَّجنا. وأصبت بالسرطان. بدأ شعري يتساقط من العلاج الكيماوي. وقفت أمام مرآة أخرى في بيت آخر، وليل آخر، وضوء آخر، في «بيرزيت»، ولمست شعري : كان جافاً، ولا أشعر به، وشبيهاً بأسلاك معدنية دقيقة. وكلَّما وضعت يدي على خصلة شعر خرج بعض منه بين أصابعي، أو سقط في المغسلة. «وأنا، تايريزياس، رأيت كلَّ هذا..» وقلت لنفسي : عد إلى تاريخك، «أنت وحدك عدم»، كما قال شكسبير، حتى تايريزياس كان

Twitter: @ketab_n

الناطق الرسمي باسم الآلهة، وليس وحده.

حلقت شعري كلَّه، بشفرة، وبزغت صلعة تلمع في صفرة الضوء، كهوية جديدة، ومدهونة بزيت الزيتون .. كنت تايريزياس الأكثر نضجاً، ولكن لم أدر ما اسمي الآن. ولا ما هي مدينة اسمي. وقهقهت من شكلي، وأناي وهناي، وما علي أن أكون.

كنت، في نظر غيري، ربمَّا، صاحب شعر طويل، أشقر، محض متمرِّد ثورته لا تتجاوز شكل شعره. والآن يبزغ أصلع فقد «علامته المميَّزة». هويتي تأتي من تاريخي، وروحي، وليس من شعري وصلعتي. ولكنَّهم شلحوني تاريخي، و لم أعد إلاَّ شجرة على مفرق طريق. والسرطان يحاول أن يشلحني جسدي؟

فكَّرت، وأنا أحدِّق في المرآة، أنَّ كلَّ ما يلزمني ثوب طويل أصفر، يليق بعراف، أو بطفل نبي، وصندل جلد قديم، وأظافر أقدام فظة تصلح حتى لعبور المستنقعات، وأن أرحل، بحثاً عن اسم لي، وعن مدينة لاسمي، في تاريخ هذه البقعة من التاريخ. سأمرُّ على طيبة مصر، وبيبلوس، وبابل، وتدمر، وبتراء، والأندلس، ولو كان صندلي زنبقة بيضاء في خطوة من خراب.

مرَّت مدَّة وأنا أنادي على نفسي، بيني وبيني، باسم تايريزياس هذا. كنت أبدل أسمائي ومدن إقامتي، بالمناسبة. مرَّة كنت «مردوك»، كبير الآلهة البابلية، ومرَّة امرأ القيس، ومرَّة غلاماً يروي شعر المتنبي في حانات حلب في العصر العباسي، ومرَّة عبداً أسود شارك في «ثورة الزنج» في القرون

Twitter: @ketab_n

الوسطى، واشترته غانية من أصفهان، ومرَّة زرت «سيدوري» صاحبة الحانة في «ملحمة جلجامش»، ومرَّة صعلوكاً مع «الشنفرى» الذي :

«يرى الوحشةَ الأنسَ الأنيسَ، ويهتدي

بحيث اهتدتْ أمّ النجوم الشوابكِ»

ومرَّة كنت واقفاً مع خادمين من روما، أمام باب قصر في مصر، عندما خسرت كليوباترا معركة «أكتيوما»، فمرقت مسيرة تنشد عن نصر وهمي :

«يومنا في أكتيوما

ذكره في الأرض سار

سائلوا أسطول روما

هل أذقناه الدمار !»

وسمعت خادماً منهما يعلّق على النشيد لصاحبه ، في مسرحية «كليوباترا» لأحمد شوقي :

«أنظر الشعب، دَيونَ،

كيف يوحون إليهِ!

ياله من ببغاءٍ

عقله في أذنيهِ!»

Twitter: @ketab_n

ويا إلهي، كم كنت وحدي، أحياناً. وكأنَّني هذا الشاعر الذي كان يطوف في أصقاع موحشة لا أثر فيها لكائن حي، وفجأة :

«عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى

وصوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ !»

وهكذا، وهكذا. وأدركت أنَّني لست شَعري، في سفري، ولو سقط خصلاً خصلاً، ولا لحمي، ولو حرقوه في نار بوذية، ووضعوا رماده في إناء من التوتياء، وقالوا لي : «هذا رمادك فابكِ عليه». لا بُدَّ من حبّ، ومن جمال. «الجمال لن ينقذ العالم، ولكن الجمال في العالم يجب إنقاذه»، قال كاتب ما.

بعد ثلاثين عاماً من منفى طوعي عن الجبل، رجعت إليه، إلى جمال سبق ونسيته، أو حتى خنته. من يعرف من أهل هذا الريف أنني كنت في طيبة مصر، وجالست كهنة الكرنك، ورأيت خنزيراً برّياً يقتل الإله «النعمان» في فيء الصنوبر في غابات لبنان فيبزغ من دمه قطيع الأقحوان، وضاجعت في ما بين النهرين عاهرة مقدَّسة عند النبع البارد قرب مدينة «أوروك»، ثُّم شربت خمرة، وأكلت خبزاً في «أوروك»، لأنَّ هذا هو سبر البلاد، وعاداتها الأولى؟ من يدري أين كنت؟ لا أحد، ولا أحد سيدري أين أذهب!

وأخيراً ها أنا في البيت الذي قرب الرمل. كلُّ ليلة تجرُّ الثعالب فراشي من تحت الزيتونة المقمرة إلى وسط الخلاء. لم ألق لها أكلاً، ولا قمامة في كيس

Twitter: @ketab_n

بلاستيك أسود، منذ ليال. و لم تجئ الثعالب، منذ ليال، أيضاً. وشعرت بعزلة، غريب كم شعرت بعزلة. كان بإمكاننا أن نكون أصدقاء، أنا والثعالب، والنسناس الذي يحدِّق فيَّ كل ليلة، والقطط البرِّية، والأفاعي، والعقارب، ونمشي عند «خطِّ الشفا» معاً. كان بإمكاننا. ولكن الثعالب لم تجيء، منذ ليال. وحزنت، وسهرت أنتظر منها أن تستألفني.

■

وبقيت قاعداً فوق كرسي قشٍّ في فيء مقمر، فيء من أيام البيزنطيين، فالزيتونة «رومية»، وأسمع عزف ناي غامض. وطلع الصبح عليَّ. ضباب أبيض جداً بدا وكأنَّه تجَّمد في أغوار الأودية، وجلدي يستحمُّ في لسعة برد منعشة، وبدأت عصافير تزقزق في الجنائن، وبداية شمس، ونمل بأجنحة، وحياة تستيقظ.

قرب البيت الذي قرب الرمل طريق من حصى أبيض، بدت شبه مقمرة، ربمَّا من حمرة التراب حولها، في جنائن تين. فجأة لمحت شيئاً بنِّياً تحرَّك واختفى في الطريق. حدَّقت جيداً، في ضوء غامق، فرأيت حيواناً غريباً لم أره في حياتي أبداً، غريباً عن الجبل تماماً، مثلي : أحمر حمرة داكنة أقرب إلى البنيِّ، وشعر ظهره يشبه مشطاً منفوشاً، وقائمتاه الأماميتان عاليتان. ضبع! يا إلهي! آجلا أو عاجلاً سيأكل آثر، قد يخطفه في ليلة ما. ولكن ساورني شكٌّ فيما أرى. الضبع أُسطورة الجبل، ولكن هذا الكائن غريب

Twitter: @ketab_n

عنه، وليس ضبعاً. حدَّقت أكثر.

خلفه حيوان صغير آخر، ابنه، ربَّما. أحمر حمرة داكنة أقرب إلى البنيِّ، مثله، ووجهه مغمور في ندى الطريق، ويشمشم شيئاً ما. وخطر ببالي أنني رأيت كائنات كهذه في كتاب «الصيد في الفن». هذا خنزير بري! ولكن قد يكون ضبعاً، فقوائمه الأمامية عالية كقوائم الضبع. لا، لا! هذا الشكل هو الذي رأيته في كتاب «الصيد في الفن»! خنزير بري! ولكن ماذا لو كان ضبعاً؟.

كنت منهكاً، من ورم في فلقة الرئة اليسرى ازداد إلى (37) سنتمتراً مربَّعاً. مجرَّد المشي عشر خطى ينهكني. لا أستطيع دفاعاً، من أي نوع كان، لا عنِّي، ولا عن آثر. مشيت في الجنائن نحو هذا الكائن. هكذا، عارياً من كلِّ نيَّة في أيِّ عدوان، كنت أريد أن أرى وجهه، وهل هو ضبع أو خنزير بري. ونسيت تماماً أنَّني فريسة سهلة في كلتا الحالتين.

بدا وكأنَّ قوَّة حبٍّ استطلاع خالصة لوجه الله تعالى تسوقني سوقاً إلى موتي. مشيت إلى الحيوان ببراءة تقترب من البلاهة. واقتربت، فانتبه. رفع رأسه عالياً، وحدَّق فيَّ بين التين، ولكن لم أر وجهه بوضوح. حاولت أرى، فقط أرى. وفجأة غاص، نحوي، حافراً وعافراً حمرة التراب بظلفيه، ووجهه نحو الأسفل. بنطحة منه قد يكسر شجرة!

وبقيت واقفاً. حركته بدت كوميدية، مخلَّعة، وكأنَّه عجل، وليس وحشاً. ابتسمت من حركته. كان مندفعاً بكلِّ كتلته. ولمَّا صار على بعد عشر خطوات فقط منِّي، كنت لم أزل أحاول رؤية وجهه. وقف تماماً. ورفع

Twitter: @ketab_n

رأسه إلى الأعلى، وأذنيه. وحدّقنا في بعضنا. كان وكأنه شمّ نواياي، للنوايا رائحة كالعرق والخوف، مثلاً، ولم يعد يدري ماذا أريد منه، ولم أدر ماذا يريد منّي بالضبط. وركّزت في وجهه، هكذا، ببراءة، فازداد حيرة. نظرت إلى ابنه، أو ابنته، كائن أحمر صغير يمشي بسلام في الطريق البيضاء خلفه، ولم يزل يشمشم التراب بأنفه. وفهمته: هو، أيضاً، يدافع عن صغيره، ويحاول أن يطمئنّ على صغيره، الذي له «بيت قرب التين»، ربمّا.

وقفنا بين التين، زمناً، وحدّقنا في بعضنا. وخطر آثر ببالي. استدرت ورجعت، ثمّ نظرت خلفي، فرأيته وقد استدار هو الآخر، ورجع. نظرت من الشبّاك إلى آثر وأمّه: كانا نائمين، بسلام. وأردت أن أوقظهما كي يريا أصدقاءنا الجدد! نظرت إلى الخنزير البنيّ: كان يمشي قرب صغيره ناسياً تماماً أنّنا التقينا، وكان بإمكاننا أن نكون أصدقاء.

■

فاستدرت إلى عالمي الخاص. كنت أحاول أن أتخيّله، عمُّ أمّي، قدورة هذا، حين كان يعزف على ربابته فوق سطح «الدير الجوّاني»، ويشرف على أودية عميقة ومقمرة، وجنائن محروثة، ومزروعة. كنت أحاول أن أتخيّله حين يشعل ناره، ليلاً، ويدخّن «أرجيلته»، وأمّي تحمل جمرة في ملقط إليه.

وسألتها، تحت الزيتونة المقمرة: «هل كان يزوره أحد هناك؟»

Twitter: @ketab_n

«نعم، نعم. كانت ثقة الناس ببعضهم أكثر من اليوم، أملهم في بعضهم أكبر. كنا نترك المفتاح فوق الباب، ونضع «زير» فخار فيه ماء، في الخارج، لمن يأتي، كائناً من كان، كي يشرب».

– ومن كان يزوره؟»

– «الغجر».

– «غجر؟» .

– «نعم».

– «وهل كانوا يغنُّون ويرقصون حول النار في الجبل، ليلاً، وخيولهم تأكل علفاً قربهم؟».

– «لا، لا! سمعت من شيوخ قبيلتنا عن غجرية كانت تأتي وتمشي على الحبل، وتغنِّي، وعن رجل معه قرد يقوم بحركات بهلوانية، أو «صندوق عجب» يروي به سيرة بني هلال، وعن منجمين. كنت صغيرة، أيامها، وأذكر أن غجر «الدير الجوَّاني» كانوا صيَّادي غزلان. ينصبون فخاخهم ويسهرون مع قدورة على سطح الدير».

– «وكيف كان يسهر معهم؟»

– «يغنِّي لهم على ربابته من سيرة الزير سالم».

■

Twitter: @ketab_n

يقول غجر فلسطين إنَّهم عرب قدماء من «ربع جساس»، وطردهم الزير سالم من النقب، وسموهم «النَوَر» نسبة إلى النور، أو النار، ربَّما. ماذا كانوا يرون في النار، ليلاً، في «الدير الجوَّاني»، حين يحدِّقون فيها، ويسمعون سيرة الزير سالم؟ مدينة اسمهم» ؟ وربابة قدورة، هل أرجعتهم على وتر مفرد نحو «أصلهم»؟

كانت عرَّافة نورية تأتي إلى بيتنا، وأنا طفل، بثياب ملوَّنة، ووشم أخضر مثلثٌ على ذقنها، ومعها «صَدَف»، وقواقع بيضاء، تنثرها على المصطبة، وتقرأ البخت. فتنتني غرابة عالمها. وبعد عقود، كنت أنبش في شعر الغجر وأُغنياتهم في هنغاريا، وأزور حاناتهم، وأغانيهم، وأحببت من شعرهم قول باري كاروي :

«يا إخوتي السبعة
وقد نثرتهم الريح، ليلاً، على صخور سبع
عليكم ألقي قميصي الوحيد».

والعرَّافة لم تزل قاعدة في بداياتي، تنثر عدَّة أصداف على المصطبة، وتقرأ الهيئة التي ترسمها الأصداف :

«وأنت من وين؟
أنا من بلد الحكايات».

ولكي يكتمل الوهم الغجري، سمَّاني أبي «النوريّ»، وقالت أمي إنَّني طفل جلبه الغجر معهم، ذات يوم. ومثلما كانوا يحدِّقون في النار في «الدير

Twitter: @ketab_n

الجوّاني»، ووهجها يشعُّ على حفر في ملامحهم، ويتذكّرون أصل اسمهم، وفصلهم في «حكايات» الزير سالم، أحدِّق في ذكريات أُمّي عنهم، وعن ربابة قدورة، فأعثر عليهم في ذاكرتي قبل أن أولد! أي أن «بداياتي» ليست نقطة، بل نجمة مشعَّة!

وبعد عقود كتبت أُغنية «عن أصلي النوري» هذا، «أصلي نوري، هذا قدري»، وأعيش على الأشياء القديمة، وعلى بيع الخيل، والعملة القديمة، وخلاخل فضة، وحكايات. وشاركت في فيلم وثائقي عن هؤلاء «الغرباء». يبدأ بلقطة لـ «نورية» تشبه تلك العرّافة، حين تدخّن، قاعدة أمام نار غامضة، وبوشم على ذقنها وشفتيها، وصوت عميق وأجش، وتتنبأ بأزمنة صعبة آتية – نبوءاتها من «سيرة الزير سالم». ولكن لقاءات الثقافة العربية والغجرية أقدم من هذا :

قيل إنَّ الغجر وصلوا إسبانيا في (1477) ميلادية، أيام حكم العرب للأندلس. ومن الأُغنيات الشعبية الأندلسية والتراتيل الكنسية البيزنطية، وأغاني اليهود السفارديم، والعرب المسلمين، وأغنيات الغجر الغامضين هؤلاء، تبلورغناء متضوِّر ذو لون روحي عميق يدعى «الأغنية العميقة» – ومن هذه جاءت «الفلامينجو».

وكتب «لوركا» أول ديوان شعر لـه مستوحى من هذه الأغوار التي لنا، نحن العرب، وللغجر، سهم فيها : «قصائد الأغنية العميقة» ، عن نهرين لغرناطة : الأول يبكي والثاني من دم، وعن نهر له سوالف من ورق الزجاج، وعن

Twitter: @ketab_n

«بلد قديم

لمصابيح زيت، وحزن

بلد صهاريج عميقة

بلد

موت بلا عيون

وسهام».

وعن عمياوات يحدِّقن في القمر. وهكذا، وهكذا.

أحبُّ «لوركا». وقبل أن يولد آثر في مستشفى الهلال الأحمر في رام الله، فكَّرت أن أسميه «لوركا»، كي يرحل في مدينة اسمه، ويصل الأندلس، ويكون اسمه شبه هذا القمر الأحمر فوق الجبل، الذي يشبه إلهة مغمضة العينين وتتأمَّل، ويكون اسمه «واقفاً فوقه»، في حلمه، حين تأتي عرَّافة غجرية، وتغنِّي له، بصوت كالحوريات، قول محمود درويش :

«وسآتي مثلما في كلِّ ليلة

أفتح الشبَّاك في الحلم ، وأرمي لك فلَّة» .

ثمَّ تعطيه صدفة بيضاء تشبه هذا القمر الشاحب الذي يبدو «صدفة مغسولة بمياه الزمن حين ترتفع وتهبط بين النجوم، وتنكسر إلى دقائق وسنين». ويكون لتلك الصَدَفة رائحة أُنثى، وملح بحري، وعطر إن شمَّه سوف تمشي روحه نحو الأندلس، ونحو «قصر الحمراء»، ونحو نهر له سوالف من زجاج. وتنتشر روحه من الأندلس حتى بتراء، ومن بابل حتى الكرنك،

Twitter: @ketab_n

ومن الغجر حتى الزير سالم.

«وأنت من وين؟

أنا من بلد الشبابيك».

وبداياتي ليست نقطة، بل نجمة مشعة. ومن أشعتها الغجر الذين يعرفون أميِّ، وأرجيلة قدورة، وربابته، و«الدير الجوَّاني»، وأصلهم في حكاياته عن الزير سالم. وهذا ،أيضاً، من التاريخ الذي شلحته، أو شلحوني إيَّاه. خسارة، ياابن هذا الإرث العظيم.

من يعرف من أين جئت؟ لا أحد! ولا أحد سيعرف أين أذهب!

مررت على «الأغنية العميقة» هذه، وأنا عرَّاف يلبس ثوباً أصفر، وتلتقي فيه جميع الأنهار، لكي يصبح «خريفية».

قعدت، مرَّة، في الليل، عند الشاعر الأميركي، «إدجار ألن بو»، في القرن التاسع عشر، وهو يكتب قصيدة لها عنوان عربي : «العرَّاف»، حيث «كلُّ الطبيعة تحكي، وحتى الأشياء السامية ترفُّ أصوات غامضة الظلِّ من أجنحة رؤيوية». وحلمت بزيارة واحة «سيوة»، في صحراء ليبيا، حيث قيل إنَّ الإسكندر المقدوني دفن هناك، حيث يوجد معبد «أمون – رع»، وقيل إنَّ الإسكندر نفسه ذو أصل مصري. لي جذور في مصر، وفي الإسكندر المقدوني، في «ذي القرنين» هذا.

قيل : كان «نيكتانيبوس» ساحراً مصرياً، حكم مصر في حوالي (358) قبل الميلاد ، وعرَّافاً ، ومنجِّماً، ويمتلك القدرة على أن يجعل الناس

Twitter: @ketab_n

يحلمون. ومن عاداته، حين يهاجم مملكة مصر عدو من البحر، مثلاً، أن يدخل غرفة خاصةً بالسحر في قصره، ويصنع تماثيل صغيرة من شمع، للأعداء والأصدقاء، ويضعها في وعاء ماء، ثم يرتدي ثياب نبيٍّ مصري، في يده قضيب من الأبنوس، ويدعو آلهة مصر، ومنها «آمون» أو «آمين»، كي تغرق بقوَّة الكلمات السحرية أعداءه في البحر أو في الإناء، لا فرق.

وفي ذات يوم لم يغرق تمثال واحد، وحاربت آلهة مصر في صفوف خصومه، فوق ذلك، وأدرك أنَّ مملكته على وشك الزوال. فتنكَّر في زيٍّ إنسان عادي، وهرب في سفينة إلى مقدونيا، ليعيش ككاهن وعرَّاف مصري هناك.

وهناك، بعث «حلماً» إلى أُمِّ الإسكندر المقدوني، أوليمبيا، يوحي إليها فيه أنَّ الإله «أمون» المصري سيزورها في حلمها، ويناكحها، وتحبل بذكر هو ابن «أمون». وحبلت أوليمبيا من أمون. وحين جاءها المخاض، كان نيكتانيبوس هذا قربها، وأمامه طاولة عليها كان رسم مدارات الكواكب، وكان يقرأ كتابة السماء، ويهيب بأوليمبيا أن تؤجِّل ولادتها. ولَّما لمع وميض غريب بين النجوم، يشير إلى بخت سعيد، نظر إليها وقال : «الآن، الآن، أيتها الملكة، لِدي من سيحكم العالم»! وأبرق برق، ووقع الطفل على المصطبة.(انظر/ي واليس بدج : السحر في مصر القديمة. ص.95- 98، 196).

أيامها، في مصر، كانت قد تكوَّنت وحدة غيبية بين إلهين فرعونيي ن: «ر ع» (إله الشمس)، و«أمون». ومن رموز «أمون –ر ع» النسر الذهبي. ويقال إنَّ «نيكتانيبوس» بعث «نسراً» إلى حلم فيليب، زوج «أوليمبيا»،

Twitter: @ketab_n

يخبره أن الإسكندر ليس ابنه، بل ابن «أمون».

واجتاح الإسكندر المقدوني العالم القديم. وبنى الإسكندرية، وذاب، كغيره، في إرث هذه البقعة من العالم، وإرث فلسطين من جملته. وظلَّ الإسكندر قلقاً من «هويته»، وممن هو بالضبط. فذهب إلى عرَّاف في واحة «سيوة»، في صحراء ليبيا، كي يستجلي أمر نسبه، فقال له العرّاف إنَّه ابن الإله «أمون»، وليس ابن «فيليب». ولأنَّ جذور أمون هذا في العبادة القمرية، اعتقد الإسكندر أنَّه إله قمري، وأصدر عملة عليها صورته وله «قرون» (كالهلال). وصار يرغب أن يخرَّ له أتباعه ساجدين. مات في مصر، وقيل إن جثته نقلت إلى واحة «سيوة»، ودفن هناك، حيث يوجد معبد لـ «أمون – رع».

ورأيت، قبل مدَّة، تقريراً في التلفزيون عن عالمة آثار تنقب في «سيوة» هذه عن قبره. ولكن، كما قال لي رسَّام فرنسي التقيته في «لوديف»، منعوها من التنقيب، وسيَّجوا البقعة كلَّها!

أعني أنَّ من المبتذل أن يكون الواحد ابن أمِّه وأبيه، كما يقول نيتشة، يمكنني أن أكون ابن الإسكندر المقدوني هذا، كما كان الإسكندر نفسه ابن «أمون»، وليس ابن فيليب، ويمكنني أن أكون ابن بطليموس، أو المتنبي، أو جلال الدين رومي، أو «الأغنية العميقة»، أو وتر ربابة. كي أتجنَّب «قرون الثور»، أقول من المبتذل أن يكون الإنسان ابن أمِّه وأبيه.

ثم التقيت هؤلاء الذي عادوا و لم يعودوا إلى الجبل، و«كانوا كما كانوا، سليقة كل نهر لا يفتش عن ثبات». وها أنا هنا، بعد كل هذه الرحلة،

Twitter: @ketab_n

في بيت صغير وأبيض، مع ابني وزوجتي، وأنا هو، هذا القاعد تحت فيء زيتونة مقمرة، وتسحب الثعالب فراشه إلى بقعة في الخلاء، أنا هو، هو نفسه. وهذا البيت الذي قرب الرمل بيته هو، هو نفسه. تحرسه زيتونة، أو ولدته أمّه «في البستان الدافئ يحرسه حجر أخضر»، هذا هو، هو نفسه. ليس أسطورة أو محض خيال، بل خريفية من خراريف الجبل، والدير الجوّاني!

«وأرى...

أرى ما أريد من السلم..»

وهذه العجوز ذات السبعين عاماً أمّي، منهمكة في زراعة ثوم، وبندورة، وبصل بلدي، حول البيت الذي قرب الرمل، في أحواض حجر بدائية، أنواع النباتات نفسها التي كانت تزرعها في «الدير الجوّاني»، قبل أن تتزوّج، وقبل أن يزرع لها أبي جنائن بيتنا باللوز، فهي ترجع نحو «ذاكرتها القديمة»، وتفيض حيوية، وأنا شفيت من السرطان، وتزرع لي، ولآثر، وبترا، كلَّ مكونات صحن السلطة الذي سأحتفل به بالحياة. وفي الربيع، بين النحل، ونوار اللوز، وطريق النمل، والشمس، والعصافير، سأتعلّم العزف على الربابة، وأقعد فَوق بيتنا، وأعزف، مثل قدورة بالضبط، وأشرف على أودية عميقة ومقمرة، وجنائن مزروعة، وأختتم بهذا دورة أخرى من دورات التناسخ الأبدي، دورة أخرى، وخريفية جبلية أخرى. بداياتي نجمة مشعَّة، ونهاياتي كذلك.

Twitter: @ketab_n

ويوماً ما، سيعرف الجبل أنَّه اختار الثبات، كمدينة البتراء، واخترت الحركة، كالنار، والهواء، والأغنيات، والحكايات، وقصص الجنِّ، ولا بُدَّ أن نتعارف ثانية، ولو في لحن ربابة!

الجبل بدايتي الأولى، ودفعته إلى «أقصاه» : أوصلته إلى الإسكندر المقدوني، والمتنبي، وأمون، ورع، ورأس الرجاء الصالح، ولاو – تسو، وبوذا، وجلال الدين رومي، وبودلير، وماركيز، وميشيما، وغير هذا الكثير، والكثير جداً. وفيَّ وصل هو إلى أقصاه، وصار هو، هو نفسه. وأنا أدرى ببداياتي، فهل يتعرَّف هو، هذا الجبل نفسه، هل يتعرف، في ملامح وجهي التي تتكَّون كأسطورة غاية في الغرابة، على أحد أقاصيه، وإحدى نهاياته؟ هل يتعرَّف هذا الجبل..هل.. في ملامح.. على أحد .. أقصى، ونهاياته؟ أنا من غريرياته، وآن له الآن أن يراني، على هيئة «غريريا» تصعد الجبل نحو القمر الأحمر الذي يشبه إلهة مغمضة العينين وتتأمَّل فوق «خطِّ الشفا»، ويقول لي : هناك، هناك، ألا ترى؟ هناك، سلالم الروح إلى سماء الحديد الفرعونية فاصعد!

اللَّهم فلتشهدْ !اللَّهم فلتشهدْ !وليغنِّ الجبلْ !

ملاحظة : بعد مراجعة أوراق الشاعر ومقارنة فصول الكتاب مع الأصول اتضح أن الفصلين الأول والثاني دون عناوين، باستثناء الفصل الثالث الذي حمل عنوان : عندما لا تجيء الثعالب، فاقترحت عنوانين للفصل الأول والثاني ، وعليه اقتضى التنويه . (مراد السوداني)

Twitter: @ketab_n

الشاعر حسين جميل برغوثي

(2002-1954)

1983 بكالوريوس أدب إنجليزي ـ جامعة بيرزيت .

1987 ماجستير أدب مقارن ـ جامعة واشنطن، سياتل، الولايات المتحدة الأمريكية .

1992 دكتوراة أدب مقارن ـ جامعة واشنطن، سياتل، الولايات المتحدة الأمريكية .

الإصدارات :

2004 – الضوء الأزرق بالفرنسية، ترجمة: ماريان فايس، Sindbad، ACTES SUD، باريس .

2003 – «السادن، قصص عن زمن وثني، الناقة كفن معماري» ـ المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي .

2002 – «حجر الورد» ، نص ما بعد حداثي ـ مطبعة أبو غوش .

Twitter: @ketab_n

2001	– «الضوء الأزرق»، سيرة . بيت الشعر الفلسطيني وبيت المقدس للنشر والتوزيع .
2000	– ديوان «مرايا سائلة»، اتحاد الكتاب الفلسطينيين ـ القدس .
1998	– ديوان «توجد ألفاظ أوحش من هذه» . وزارة الثقافة الفلسطينية ـ رام الله .
1999	– «ما قالته الغجرية» ، مختارات شعرية ـ بيت الشعر الفلسطيني – المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
1998	– «ريشة الذهب» ، قصص من التراث الفلسطيني، أشرف على البحث وإعداد القصص، اتحاد الشباب الفلسطيني ـ رام الله .
1996	– ديوان «ليلى وتوبة» . اتحاد الكتاب الفلسطينيين ـ القدس .
1988	– ديوان «الرؤيا» ـ اتحاد الكتاب الفلسطينيين – القدس .

Twitter: @ketab_n

1983 – رواية «الضفة الثالثة لنهر الأردن» دار الكاتب، القدس .

1981 – «سقوط الجدار السابع : الصراع النفسي في الأدب»، دار العامل، رام الله .

1979 – «أزمة الشعر المحلي» دار صلاح الدين للنشر – القدس .

سينما :

2001 – «حريتي المفقودة»، فيلم وثائقي، إخراج عيسى فريج ، قام بوضع المفهوم والدراما.

2000 – «الغرباء»، فيلم وثائقي من إخراج وائل أبو دقة، قام بوضع السرد والدراما.

1999 – «توتر» ، فيلم وثائقي، من إخراج رشيد مشهراوي ، عمل مستشاراً فنياً.

1998 – «المعصرة» ، سيناريو فيلم روائي طويل بمشاركة رشيد مشهراوي.

نصوص للمسرح :

2002 – «لا لم يمت»، مسرح الحكواتي - باريس.

Twitter: @ketab_n

2001 – «حفلة على غفلة» ، مسرح الحكواتي ـ باريس .

1997 – «وجوه» ، مسرح القصبة ـ القدس .

1995 – «الليل والجبل»، إعداد مسرحي، مسرح القصبة ـ القدس .

1995 – «موسم للغرايب» ، سرية رام الله الأولى للموسيقى والرقص ـ رام الله .

1994 – «روميو وجولييت» ، ترجمة وإعداد ـ مسرح القصبة ـ القدس .

1987 – «قصة ساحة الورد» ، سرية رام الله للموسيقى والرقص ـ رام الله .

1984 – «المزبلة» ، مسرح الرحالة ـ رام الله .

أغنيات :

– قام بكتابة العديد من الأغنيات لفرق موسيقية مختلفة مثل : صابرين، الرحالة ، سنابل ، فرقة إحياء بلدنا .

أعمال لم تنشر بعد :

– مسرحية «هاملت» ، إعداد وترجمة.

Twitter: @ketab_n

الوظائف التي شغلها :

في السلك الأكاديمي :

1997-1984	- محاضر جامعي ، جامعة بيرزيت ـ بيرزيت
2000-1997	- محاضر جامعي، جامعة القدس ـ القدس

في الحقل الثقافي :

2000-1997	- عضو مؤسس في المركز الثقافي الفلسطيني (بيت الشعر الفلسطيني) .
2002-1999	- عضو الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين .
2001-1997	- مدير تحرير مجلة (الشعراء)
1996-1997	- رئيس تحرير مجلة (أوغاريت) .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفهرس

- بين اللوز والرؤيا : احمد دحبور 5

- الفصل الأول : الدير الجوّاني 31

- الفصل الثاني : بلد الحكايات 69

- الفصل الثالث : عندما لا تجيء الثعالب 99

Twitter: @ketab_n

I'LL BE AMONG THE ALMONDS

سيرة
AUTOBIOGRAPHY

سأكون بين اللوز

لو كان حسين مجنوناً بحيث يضحّي بهذا العنوان الساحر « سأكون بين اللوز » لكان من الممكن أن يستأذن الرومنسيّة في أن تدخله بيتها بتسمية هذه السيرة « أنا من بلد الحكايات » ، فإضافة إلى التأمّلات ، والتفسيرات ، والقراءات المفاجئة لكلّ ما يخطر في الذاكرة وتتدبّره المخيّلة ، هناك سيل من الحكايات الّتي ورثها هذا الرجل الّذي ظلّ يقطر شعراً حتّى آخر لحظة من حياته ، مع أنّ شاعريّته الحقيقيّة وجدت متنفّسها الطبيعيّ في نصّ مركّب كهذا الّذي بين أيدينا .

ويكاد يكون ما قاله د. عبد الرحمن بدوي ، بشأن الفيلسوف الوجوديّ الدنماركيّ كيركغارد ، يتطابق مع صفات كتاب البرغوثيّ من حيث أنّه « خليط غريب من الاعترافات العاطفيّة الشخصيّة والتأمّلات الفلسفيّة والمقالات الأدبيّة ، وفي الكتاب تتعاقب الأجناس الأدبيّة : يوميّات ، عرض منظّم ، مناجيات ، صور أدبيّة ، تفسير أحلام .. إلخ » وزيادة على هذه المزايا والسجايا نعود لدى حسين إلى الحكايات الّتي تجمع سحر الميثولوجيا إلى مكر العقل الّذي يقود القارئ ، من غير مباشرة، إلى التأويل حيناً وإلى التخيّل أحياناً .

تسهم شهادة حسين البرغوثي هذه ، بفعاليّة مؤلمة بقدر ما هي مدهشة، في ملفّ تعترف من خلاله الثقافة العربيّة المعاصرة بلحظة استثنائيّة لمبدعين وقفوا قبالة الموت وجهاً لوجه ، وشهدوا على ما شاهدوا [..] وكان إنجاز حسين ، في هذا الحيّز المتحشرج الحرج ، هو ذلك الاطمئنان إلى الحياة في الطبيعة . لقد جاء بصور مذهلة للوديان والجبال والبشر ، ولكنّه كلام غير الوصف الّذي يوفّر المقاربة الخارجيّة ، بل كلام يذهب إلى العميق والحميم فلا تعرف ما إذا كنت تقرأ نشيداً في وداع الحياة ، أم أنّه فصل فلسفيّ تأمّليّ في تمجيد هذه الحياة .

أحمد دحبور

ISBN 9953-36-620-9

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨